المصطلح القرآني وعلاقته بعلم التجويد
مصطلح التلاوة نموذجا

إعداد

د. الطيب شطاب

أستاذ بمركز مهن التربية والتكوين – أكادير

المغرب

المؤتمر العالمي الرابع للباحثين في القرآن الكريم وعلومه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل الكتاب، هدى وذكرى لأولي الألباب، والصلاة والسلام على محمد خير الورى، صلى الله عليه وعلى آلة وصحبه، وكل من سار على نهجه، وأثرَه اقتفى.

وبعد:

موضوع الدراسة وأهدافها:

يعد المصطلح القرآني مستمد كثير من العلوم، ومنطلق التقعيد لمبانيها، وأساس التصور الصحيح لمناهجها، وقد كان علم التجويد من تلك العلوم التي التصقت بالكتاب، فانتقى منه مفاتيحه في ابتداء نشأته، وكان بها قوامه واستقامته، حتى أحدثت فيه الأنظار ما أحدثت، وتجددت فيه الفهوم، فكان منها ما ارتبط بمنهاج القرآن ملازما لسَننه، كما كان في مبتدئه، ومنها ما ند عن هداه فاحتاج إلى العودة المثلى لأصوله الأولى.

ومن أجل تحقيق هذه العودة بقضايا هذا العلم، تأتي هذه الدراسة ساعية لتبصر علاقته بالمصطلح الإمام (المصطلح القرآني) منطلقة من نموذج من مصطلحاته التي تعد واحدا من المفاتيح المُوصلة إلى مغالق الاهتداء في القرآن، وتبصّرِ منهاجه، وانبلاج رؤيته حول الدين والإنسان، وما أُودع فيه من آيات البصائر والإبصار، الموضحة لمعالم النهج الوسط، الذي هو سيما هذه الأمة، وعَلَمها الذي به تشهد على العالمين. ذلكم هو مصطلح **"التلاوة"** الذي أريد له أن يتكرر في آي الكتاب؛ تنبيها على إن إحسان الفهم لمبانيه، وترسُّم أركانِه وضوابطه، من مقدمات الفهم الصحيح عن رب العالمين، والسير إلى هداه المتضمن في البلاغ القرآني.

ولا ريب أن التلاوة – بما هي نمط للقراءة- هي عملية إذا لم يُهتد في نهجها إلى ما به قوامها، كان ما تثمره من معرفة دينية، وارتسام في العمل، نادًّا عن الطريق المستقيم، متنكبا عن هدى رب العالمين، وقد شوهد ذلك بين تيارات دينية تصدر في مبانيها عن القرآن، زاعمة أنها على النهج الأسد؛ إنْ في تأويلها لنصوصه، أو تمثُّلها لمداليله، وهي في الحقيقة بعيدة عن الفهم الصحيح للدين، بل ومتطرفة في ترسّمها لمقتضياته، ودعوتها للتدين به، وما ذاك إلا لفساد منهجها في

التعامل مع القرآن، والضعف في الآليات المهتدية إلى الدخول إليه، وفي مقدمتها تلاوة نصوصه؛ إذ بسلامة المنهج تُسدَّد الخطى والأعمال، وتستقيم المبادئ والأفكار، ولا سيما إذا كان هذا المنهج ربانيَّ المصدر، فمن حقه: التجرد والثبات، والإطلاق، والخلود.

ومن هنا أضحى لازما تقصُّد مصطلحات القرآن بالدراسة والاستيعاب؛ لاستنباط المفاهيم الحقة، كما نزلها رب البرية.. وهذه المفاهيم هي مفاتيح الدين وأعلام منهاجه، وسياج الأمة من الزيغ عن صراطه المستقيم، وهي الواقية للفهوم والأنظار، والمعتقدات والأعمال، من التفرق والاختلاف، وتقربها من الوحدة والاتفاق. ولُب هذه المفاهيم ومبتدؤها هو ما كان دليل الولوج إليه وسبرَ مداخله منذ تنزله؛ وهو مفهوم "التلاوة" الذي مارسه الجيل الفريد ممارسة ربانية، ظلت لمدة زمنية آتية ثمارها، محققة للغاية من تنزل القرآن، حتى بدت في الناس ضروب من التغيرات، ولَمَّات من الآفات، أحدثت في بعض تلك المفاهيم المطلقة تقييدات وخواصَّ، وتصنيفات معرفية وتمثلات مستحدثة. فكان الأوب بمِثلها إلى أصولها الأولى أنفع لهذه الأمة، وأسد مسلكا في البحث، وأجدر بالاعتبار.

ولما كان علم التجويد هو أقرب مجال تداولي لمصطلح التلاوة، على نحو من التوظيف لمعالمها، امتازت به هذه الصناعة عن غيرها من التوجهات المعرفية التي حظيت بتلاوة الكتاب كذلك، كان الهدف من هذا البحث هو الخلوص إلى المفهوم القرآني لمصطلح التلاوة، واستنباط نسَقه المُقام في الكتاب، مقارنة بما هو عليه في بعض موروث أرباب علم التجويد، طلبا لتحصيل مناحي التوظيف لمصطلحات الكتاب في مجال شرعي لصيق بالقرآن، هل كان مستوحيا لمدلولاتها استيحاء كليا، أو مجددا لها بما يخدم موضوعه.

منهج الدراسة

وسعيا لهاته الغاية، لم يُر سبيل ناجع أقدر على الاستيعاب لمفهوم التلاوة في القرآن واستخلاص مقتضياته، وغير ذلك مما يقيم النسق العام للمصطلح، من منهج الدراسة المصطلحية؛ بتتبع موارد التلاوة في القرآن، وتبين دلالته في كل نصٍّ نص، من غير إغفال لعلاقاته وضمائمه، منوطا بأصله الطبيعي وتحولاته اللغوية.. كل ذلك من أجل إقامة مفهوم للمصطلح، يثمر نسقا لتلاوة القرآن تحقق كبير مغنم للتالين، سالكا لتحقيق أهداف الدراسة منهجا مقارنا لما استثمر في المفهوم القرآني للتلاوة، بالمعهود في علم التجويد، ملاحظا مباني الوفاق والخلاف بينهما، بوجيز القول ومختصره. عاقدا قضاياها في مدخل وفصول ثلاثة:

خطة الدراسة

خصصت **المدخل** لإبراز وجه العلاقة بين علم التجويد والمصطلح القرآني بشكل عام.

وتناولت في **الفصل الأول** مفهوم التلاوة في القرآن الكريم، مستخلصا إياه من نصوص المصطلح، بعد إحصائها وقراءةٍ لتنوع صيغها ومسنداتها، ثم وضحت في **الفصل الثاني** ضمائم هذا المصطلح مما تبرز فيه عناصر هذا المفهوم ويلحظ فيه بعض التمايز، مردفا ذلك بما له بالمصطلح علاقة، من مصطلحات تنمى إلى مجاله، لأخلص في **الفصل الثالث** إلى علاقة المصطلح بما هو عليه في علم التجويد؛ متخذا نموذجين من هذا التراث شاهدين على مجريات المقارنة، وهما العلمان البارزان وسط ذخائر هذا التراث: أولهما: الإمام مكي بن أبي طالب القيسي (ت 437هـ) في كتابه: "الرعاية لتجويد القراءة، وتحقيق لفظ التلاوة" والإمام أبو عمرو الداني (ت 444هـ) في كتابه "التحديد في الإتقان التجويد". رحمهما الله وجدد في الصالحين ذكرهما.

فجاءت هذه الدراسة على هذا الشكل معقودة في مدخل وثلاثة فصول تتفرع عنها مباحث ومطالب، وتعقبها خاتمة جامعة، بعد هذه المقدمة التي تصف سياق البحث وهدفه وموضوعه:

المدخل في وجه العلاقة بين المصطلح القرآني وعلم التجويد

الفصل الأول: مفهوم التلاوة في القرآن الكريم

المبحث الأول: الدلالة اللغوية لمصطلح التلاوة.

المبحث الثاني: دلالة المصطلح في القرآن الكريم.

الفصل الثاني: ضمائم المصطلح وأسرته المفهومية

المبحث الأول: ضمائم المصطلح.

المبحث الثاني: أسرته المفهومية.

الفصل الثالث: علاقته بعلم التجويد

المبحث الأول: المستوى المفهومي.

المبحث الثاني: المستوى الإجرائي.

خاتمة الدراسة.

والله تعالى القدير أسأل أن أكون موفقا في هذا العمل الذي أرجو به أن أكون من خدَمة كِتابه، وينفعني به يوم لا ينفع المرءَ إلا عمله، ويتجاوز عني سقطاته، ويعفو عني فيما حِدت فيه عن الصواب، من غير تعمد سوء التأويل، ولا بنية تحريف لفظ التنزيل، شاكرا من كان الدافع في إنجازه، في مبتدئه وخاتمته.

والله الموفق والهادي لا إله إلا هو.

مدخـــل

في وجه العلاقة بين المصطلح القرآني وعلم التجويد

يعد علم التجويد أهم العلوم الشرعية لصوقا بالقرآن، وأسبق المداخل إليه؛ لأن غايته تصحيح النطق بالقرآن، ولأن أسسه قواعد ترتيل القرآن، ولأن منهجه اتباع خطى الناطقين بالقرآن. وإذ كان كذلك، فهل مفاهيمه العلمية مستمدة من ذلك الكتاب؟ وهل أربابه قعدوا لأصوله من تلكم المفاهيم؟ أو أنه علم تجريبي خاضع في تأصيله لأحوال وأنغام الصوت العربي القديم، كما تنطق سائر الكلم العربية؟

للجواب عن ذينك السؤالين يأتي هذا المدخل مبرزا وجه علاقة علم التجويد بعلم اللغة ابتداء، وبمفاهيم القرآن ومصطلحاته استقلالا، وذلك في نظرين: نظر في أن اللفظة القرآنية – وهي أصيلة في العربية- هي متعلق علم التجويد، ونظر في المصطلحات القرآنية المؤسسة لهذا العلم.

النظر الأول: متعلق علم التجويد هو اللفظة القرآنية ذات الأصالة في العربية

كان النطق العربي خاضعا لموازين لغة العرب، جاريا على سننها في التعبير واتساعها في فن القول، وتفننها في الصيغ والتراكيب؛ تسهيلا لتداولها على الألسن وامتدادها للأصقاع. وتواتر معهود أحوالها دُولة بين الأجيال حتى أضحت عِلما له كلياته، ومنهجا له أسسه، يعرفون منه ما عهدوه وينكرون منه ما استثقلوه، بطباعهم وحسهم وإيلافهم وعملهم..

ولم يند ما يتعلق بالحرف العربي من هذه الأحوال اللغوية عن هذا المهيع، بل نيط معظمه بالطباع العربية وتداول الأحرف بين الألسنة، ينقلها الخلف عن السلف، إلى أن جاء عصر تأليف قضايا علم اللغة، فاستقرئ مِن قِيل من سلف ما تولدت منه فصول ورسوم؛ من قبيل ما نطالعه في كتب النحو والمعاجم العربية وصناعة الإعراب؛ كالإدغام والإعلال والإبدال، والوقف وأحواله، ومخارج الحروف وصفاتها، مما عد من صميم مباحث علم التجويد.

وآنس هذه الفصول على قوتها وثباتها أن تضافر فيها النقل مع الطبع، والسليقة مع التعلم، والتعليل مع التعبد، ولا سيما بعد نزول القرآن بلغة معهودة بين القوم مصطفاة من أجناس

لغوية وسنن في النطق العربي متعددة، فكان مع التنزُّل القرآني بالحرف العربي تنزلٌ بالاعتناء بنطقه وكيفية أدائه إجمالا؛ بأن يسلكوا به المسلك الحسن فيما عهدوه..

فكان التَّوق إلى استنباط طريقة أداء اللفظة القرآنية من جملة قواعد علم اللغة، بعد شهادة القرآن لها بالحجية وأمره بأداء القرآن وفقها، فكان الجميع مستمد العلم الموسوم بعلم التجويد..

وهو عبارة عن قواعد تعطي للحرف القرآني حقة ومستحقة وترشد إلى أدائه بالكيفية التي تلقي بها عن مصدره الأول (وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ)[1] فهي قواعد مستمدة في جملتها من علم اللغة، إلا أنها استدت بمصدر التلقي وبكليات القرآن الحاملة لأسسها، فكان لها وزنها ومقامها، وكان لها الاحتكام دون شعتبها، إذ لولاه ما كان لها ثبات ولا عنَّ بين الأنام سُمَاها (علم التجويد) والحجة لذلك نرسمها فيما يلي:

النظر الثاني: المصطلحات القرآنية المؤسسة لعلم التجويد

في القرآن الكريم مصطلحات تجويدية تحمل مفاهيم مؤسسة لهذا العلم، ومنها انبثقت مشروعية ولزوم اقتفائه في النطق بالألفاظ القرآنية، وهي مصطلحات تقعيدية كان القصد منها تبيان كيفية الأداء القرآني على وجه مجمل فسرته السنة النبوية وعمل الجيل الأول..

ولذلك عدت تلكم المصطلحات المرجع الأساس في بناء هذا العلم، ومنها استقيت بالأصالة مادته، وهذا جرد لأهم تلك المصطلحات مع الإشارة إلى بعض النصوص الحاملة لها:

التلقي: ومن موارده في القرآن قوله تعالى: (وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ)[2].

الترتيل: قال تعالى: (وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلا)[3].

التلاوة: وهو موضوع هذه الدراسة، وسترد مواردها في بابها.

---

[1] – النمل : 6

[2] – النمل : 6

[3] – المزمل : 3

القراءة: ومن موارده قوله تعالى: (فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ)[1].

الاستماع والإنصات: قال تعالى: (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)[2].

التدبر: قال تعالى: (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا)[3].

العجلة في القراءة: قال تعالى: (وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا)[4].

جمع القرآن: قال تعالى: (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ)[5].

الجهر والإسرار بالقراءة: قال تعالى: (وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا).[6]

الاستعاذة: قال تعالى: (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)[7]

التعليم: قال عز ذكره: (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)[8]

ولا ريب أن دراسة كل مصطلح من هذه المصطلحات يثمر كبير مغنم ويبرز العلاقة بين مداليلها والتصورات المشهودة في علم التجويد، والآفاق المأمولة في اكتناه حقيقتها وإعمالها في مجال القراءة. غير أن ذلك يفتقر لزمن غير يسير ومجهود كبير، نسأل الله تعالى أن يوفقنا إليه.

---

[1] – المزمل: 20

[2] – الأعراف: 204

[3] – النساء: 81

[4] – طه: 114

[5] – القيامة: 16

[6] – الإسراء: 110

[7] – النحل: 98

[8] – آل عمران 64

وحسب هذه الفصول أن تعرض لواحد منها كما جرى ذكره في الكتاب، وكما سيق بين أرباب هذا العلم وهو **"التلاوة"** فنقول وبالله التوفيق:

الفصل الأول: مفهوم التلاوة في القرآن الكريم

تبيُّن مصطلح التلاوة في القرآن الكريم يستدعي معرفة المعنى الطبيعي للكلمة، قبل الخوض في مفهومها القرآني الخاص، إذ لا بد من كينونة صلة بين الدلالتين، وبيان ذلك في مبحثين:

المبحث الأول: الدلالة اللغوية لمصطلح التلاوة:

الجذر اللغوي لهذه اللفظة هو "تلو" من باب سما، ثم قلبت واوها ألفا، وورد بالياء في حرف من الحديث، وأول بما يناسب الشائع في الاستعمال[1]، ونص على الوجهين صاحب القاموس فقال: "تلوته، كدعوته ورميته"[2]. ويبدو من نصوص أهل اللغة حول اشتقاقات الكلمة أن مدار مادتها على معنى الاتباع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا﴾[3] وأنه الأصل فيها، وتحمل عليه سائر الاستعمالات، ومنها: القراءة[4]. يقول ابن فارس: "التاء واللام والواو أصل واحد، وهو الاتباع. يقال: تلوته إذا تبعته. ومنه: تلاوة القرآن؛ لأنه يتبع آية بعد آية. فأما قوله: تلوت الرجل أتلوه تُلُوّا: إذا خذلته وتركته، فإن كان صحيحا فهو القياس؛ لأنه مصاحبه ومعه، فإذا انقطع عنه وتركه فقد صار خلفه بمنزلة التالي. ومن الباب: التَّلِية والتُّلاوة وهي البقية، لأنها تتلو ما تقدم منها".[5]

---

[1]- الحديث حول عذاب القبر أخرجه البخاري وفيه: "وأما الكافر أو المنافق فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دريت ولا تليت" [ح:1338] يقول ابن الأثير : "هكذا يرويه المحدثون، والصواب ولا ائْتَليت ... وقيل معناه: لا قرأت، أي لا تلوت، فقلبوا الواو ياء ليزدوج الكلام مع دريت. قال الأزهري : ويروى أَتْليت يدعو عليه أن لا تتلى إبله: أي لا يكون لها أولاد تتلوها" [النهاية في غريب الحديث: 531/1]

[2]- القاموس : تلا

[3]- الشمس: 2. أي "والقمر إذا تبع الشمس، وذلك في النصف الأول من الشهر، إذا غربت الشمس، تلاها القمر طالعا". [جامع البيان 452/24]

[4]- ومنه قول حسان: نبي يرى مالا يرى الناس حوله ... ويتلو كتاب الله في كل مسجد.[ديوان حسان: قافية الدال]

[5]- معجم مقاييس اللغة: مادة تلا

وقد ورد في المعاجم القديمة قبل معجم المقاييس كون التلاوة بمعنى القراءة على نسق الاتباع، يقول ابن دريد: "تلوت الشيء أتلوه: تُلُوا إذا اتبعته، وتلوت القرآن: إذا قرأته؛ كأنك اتبعت آية في إثر آية، والمصدر: التلاوة "[1]وفي كتاب العين: "تلا فلان القرآن يتلو تلاوة. وتلا الشئ: تبعه تلوا. والأمهات هن المتالي، تلاهن أولادهن، الواحد متل"[2]. وفي الصحاح: "وتلوت القرآن: تلاوة وتلوت الرجل أتلوه تلوا إذا تبعته".[3]

ويلحظ في معنى الكلمة في بعض نصوص المعاجم أن مصدرها بمعنى القراءة يختلف عنه في معنى الاتباع،[4] فالأول جاء على فِعالة: تلاوة، والثاني فُعول، يقول الفيومي في المصباح: "تلوت الرجل أتلوه تلوا على فعول: تبعته فأنا له تال، وتِلوا أيضا وزان حمل، وتلوت القرآن تلاوة"[5].

فلما ذا لم يتحد مصدر المدلولين: القراءة والاتباع لدال واحد "تلا" ؟ إن ذلك يوحي بشيء من التباين بين المصدرين في اللغة: التلاوة والتلو، فلا يحملان على متحد المعنى، حتى إذا أطلق واحد أغنى عن الآخر، إذ لو كان الأمر كذلك ما احتاجت العرب لأن تضع للفعل مصدرين متغايرين.

ولهذا لما لم يقفوا من موادها في نصوص العرب الأول على لفظة القرآن (التلاوة)[6] بمعنى الاتباع كأحد وجوهها، راموا إرجاعها إلى ما هو معهود في لسانهم، ففسروها بمطلق القراءة، ثم قالوا: "إنها على نسق الاتباع؛ "لأن القارئ يتبع آية بعد آية" فنظروا إلى اللفظ في التأويل، والحال أن في اللفظة القرآنية مزيد فضل وكبير مزية على المصدر الأول: "التلو" الذي لا يعني إلا الاتباع، وأنها اتخذت في القرآن وسما اصطلاحيا، كما سيتضح ذلك في الدلالة القرآنية للكلمة. ومن ذلك ما لاحظه بعض المعتنين بأسرار العربية من الفرق بين القراءة والتلاوة، يقول العسكري: في بيان ذلكم الفرق "أن التلاوة لا تكون إلا لكلمتين فصاعدا، والقراءة تكون للكلمة الواحدة، يقال: قرأ

---

[1]– جمهرة اللغة: تلا

[2]– العين: تلا

[3]– الصحاح: تلا

[4] فهو من باب المصادر المختلفة عن الصَّدْر الواحد [ينظر أدب الكاتب لابن قتيبة. ص: 195– 196]

[5]– المصباح: تلا

[6]– بل يفهم من كلام صاحب اللسان أن التلاوة لا تكون إلا للقرآن، قال: "وتلوت القرآن تلاوة: قرأته، وعم به بعضهم كل كلام. أنشد ثعلب: واستَمعوا قولا به يُكوى النَّطِف يكاد من يتلى عليه يجتئف" [اللسان: تلا] النطَف: علة يكوى منها الإنسان، ورجل نطِف: به ذلك الداء.

فلان اسمه، ولا يقال: تلا اسمه، وذلك أن أصل التلاوة: اتباع الشيء الشئ، يقال: تلاه إذا تبعه، فتكون التلاوة في الكلمات يتبع بعضها بعضا ولا تكون في الكلمة الواحدة، إذ لا يصح فيه التلو"[1].

وعليه فتسمية نوع من القراءة تلاوة؛ إنما هو لملاحظة معنى الاتباع فيها، لكن أي اتباع هو؟ أهو اتباع في النطق أو في الامتثال أو في كليهما. إن ذلك لا تجيب عنه أسيقة المعاجم، فلابد من استخلاص ذلك في الكتاب الذي هو المصدر الأول للمصطلح:

ونستخلص من هذه الفذلكة اللغوية للفظة التلاوة أمرين:

أولهما: أن التلاوة ترادف القراءة حسب بعض المعاجم العربية، وإنما سميت كذلك لملاحظة الاتباع فيها؛ لأنها مشتقة من تلاه إذا تبعه.

ثانيهما: أن الاتباع الملحوظ في أصل المادة فسر عند هم باتباع الكلمات بعضها ببعض، سوى من اقتبس من المعنى القرآني بعض دلالات الكلمة كما فعل صاحب اللسان، وهو كثيرا ما يتجاوز في دراسة المواد اللغوية إلى المعاني الاصطلاحية.

وعلى هذا فلا يكفي تفسير التلاوة بهذا المعنى المعجمي طلبا لتمثل مقصوده، دون البحث في المدلول القرآني وهو موضوع القضية الثانية:

المبحث الثاني : دلالة المصطلح في القرآن الكريم:

لا ريب أن المفاهيم القرآنية يتوقف تبينها تمام التبين على تأمل دقيق لمقامات ورودها في الآي والسور؛ إذ كانت تتنزل حسبما يحقق أهدافها، فلكل سورة مقصد ولكل آية مغزى تشريعي، تورد عباراتها بما يناسب ذاك المغزى، وعلى ذلك ينبغي أن تنزل في الفهم والاستدلال، وتحمل عليه المعاني والدلالات، ويخطئ من يكتنه مفاهيم القرآن الكريم باختزالها في معنى مستنبط من بعض آيه دون بعض _ إذا كان متكررا في عدة مواضع من الكتاب – ثم لا يتجاوز بتأويله ما استفيد من المعنى اللغوي لمادة المصطلح، على نحو ما نلحظه في بعض كتب التعريفات وبعض شروح مفردات القرآن. وهذا قصور يرجى تجاوزه عند إقامة المصطلح القرآني على المنهج القرآني نفسه وهو اعتبار بعضه ببعض، وعلى ما تقرر عند العلماء بالقرآن من تقرير قاعدة الحمل هذه[2]..

---

[1]– الفروق : 63

[2]– نقل الزركشي عن ابن العربي قوله في سراج المريدين: " ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم.." [البرهان: 36/1] ومنه قول الشاطبي: "المدني من السور ينبغي أن يكون منزلا في الفهم على المكي، وكذلك المكي بعضه مع بعض، والمدني بعضه مع بعض على حسب ترتيبه في التنزيل وإلا لم يصح" [الموافقات: 345/3]

وتمثلا لهذا النهج في استخلاص مدلول القرآن لمصطلح التلاوة، كان لابد من إحصاء موارده معتبرا بأشكال وروده فيها، ولمداليله في مختلف الآي والسور، فاستخلاصا لمفهوم جامع من كل ذلك. فلنرسم هذه الخطوات في مطالب ثلاث:

المطلب الأول: إحصاء لموارد مصطلح التلاوة في القرآن الكريم

وردت لفظة التلاوة في الكتاب بمختلف صيغها وضمائمها في ثلاثة وستين (63) موضعا موزعة على ثلاث وثلاثين سورة ما بين مكية ومدنية، وهذا جدول يجمل ذلك:

السور المدنية الوارد فيها المصطلح	حجم ورود المصطلح فيها
البقرة	7 مرات
آل عمران	6
النساء	1
المائدة	2
الأنفال	2
الرعد	1
الحج	3
الأحزاب	1
الجمعة	1
الطلاق	1
البينة	1

السور المكية الوارد فيها المصطلح	حجم ورود المصطلح فيها
الأنعام	1
الأعراف	1
يونس	5
هود	1
الإسراء	1
الكهف	2
مريم	2
المؤمنون	2
الشعراء	1
النمل	1
القصص	4
العنكبوت	3
لقمان	1
سبأ	1
فاطر	1
الصافات	1
الزمر	1
الجاثية	4
الأحقاف	1
القلم	1
المطففين	1
الشمس	1

المطلب الثاني: قراءة وصفية في الموارد المحصاة:

أول ما يلحظ في تردد المصطلح في الكتاب، أن وقوعه في القرآن المكي أكثر منه في المدني، حيث تردد في اثنتين وعشرين سورة مكية، في مقابل إحدى عشرة سورة مدنية، أي بنسبة 66.66% للسور المكية و33.33% للسور المدنية، من مجموع السور الوارد بها المصطلح (33سورة)، ولننظر في بعض أسرار هذا التكرار وأشكاله في النوعين من السور:

❖ **مصطلح التلاوة في القرآن المكي:**

وفي ورود المصطلح في السور المكية أكثر من المدنية، إشارة إلى أن المرحلة المكية -وهي مهد التنزيل وصدر الدعوة- إنما كانت مرحلة التلاوة؛ بما هي إنباء بحقائق الدين والتعرف على المعجزة الدالة على صدق الرسالة المحمدية، بواسطة آيات تحمل براهين خالدة، داعية إلى الانقياد الضروري عن قناعة واستسلام، لذلك كان أول ما نزل منبئا بدعوة جديدة: كلمة (اقرأ) فبدون القراءة لا علم ولا عمل.

وقد جاء الخطاب بالتلاوة فيها على **صيغ متنوعة**، كما كان **المتلو** لهذه الغاية **متعدد الأنواع**، وبيان ذلك في مسألتين:

الأولى: صيغ الورود في السور المكية:

والخطاب بالتلاوة في المكي من التنزيل وارد على صيغ مختلفة، متنوعة الإسناد إلى من صدرت منه التلاوة:

- فجاء **بصيغة المضارع** مسندا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، كما في سورة يونس[1] والكهف[2] والنمل[3] والقصص[4] والعنكبوت[5].
- ووقع مسندا إلى المتكلم به تعالى ذكره، كما في القصص[6] والجاثية[7].

---

[1]- آية 15

[2]- آية 82

[3]- آية 94

[4]- آية 44

[5]- آية 47

[6]- آية 2

[7]- آية 5

- وجاء **مسندا إلى الجماعة** في سورة في فاطر[1] والزمر[2].

– وكانت **صيغة الأمر** حاضرة أيضا في هذا النوع من السور، متجهة إلى المنزل عليه نبينا محمد عليه السلام؛ كي يتلو ما أمر بتلاوته على قومه، ويصح تعميمه؛ لكون خطاب النبي عليه السلام خطابا لأمته، على ما تقرر في الأصول، وذلك في سورة الأعراف[3] ويونس[4] والكهف[5] والشعراء[6] والعنكبوت[7].

– وأخذت الصيغة الفعلية **لما لم يسم فاعله** حيزا كبيرا في سور عدة، كما في سورة يونس[8] ومريم[9] والمؤمنون[10] ولقمان[11] وسبأ[12] والجاثية[13] والأحقاف[14] والقلم[15] والمطففين[16] والإسراء[17] والقصص[18] والعنكبوت[19]

– وفي موضع واحد ورد المصطلح بصيغة **اسم فاعل** مسندا إلى الملائكة في قول بعض المفسرين وعمه بعضهم، وذلك في سورة الصافات[20].

---

[1]– آية 28

[2]– آية 70

[3]– آية 174

[4]– آية 70

[5]– آية 27

[6]– آية 68

[7]– آية 45

[8]– آية15

[9]– آية 58 و 73

[10]– آية 66 و 105

[11]– آية 7

[12]– آية 43

[13]– الآيات 8- 24- 30

[14]– آية 6

[15]– آية 15

[16]– آية 13

[17]– آية 107

[18]– آية 53

[19]– آية 51

[20]– آية 3

– وفي موضع واحد أسند الفعل إلى النفس تقرأ أعمالها، في سورة يونس في قراءة من قرأ قوله تعالى: (هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ) بالتائين، (تتلوا) وهي قراءة حمزة والكسائي وخلف، وقرأها الباقون بالتاء من فوق والباء الموحدة (تبلوا)[1].

والملحظ من هذه الصيغ أن التلاوة جاءت في أكثرها على **زمن المضارع**، ليدل على أن التلاوة من شأنها التجدد والاستمرار، إذ بها يتجدد الفهم ويترقى في العلم والعمل والتربية والتزكية..

وأخذ من هذا **التنوع الخطابي** لكلمة التلاوة في السور المكية: أن المتجهة إليه في الغالب هو صاحب الرسالة محمد عليه السلام، إذ وقع الأمر إليه بها في خمس سور، وأسندت إليه في ست سور، وكني في الأفعال المبنية للمجهول كواحد من المقصودين بكونهم التالين للآيات فيما قيل فيه (تتلى عليهم) ونحوه، ولا ريب أن التالي لا يخلو أن يكون رسول الله أو واحدا من أمته، وعلى كلا التقديرين يكون الرسول عليه السلام مرادا، وتأويل ذلك على نحو ما ذكرناه آنفا، وهو أن يكون العهد المكي مرحلة تلقين التعاليم الدينية من لدن صاحب الرسالة؛ إقامة للحجة على القوم، وتبيينا هدى الله الذي أرسل به عليه السلام. ومن ثم لم نُلف ما أسند إلى الجماعة المؤمنة في هذا النوع، على نحو ما أسند للرسول؛ بل لم يرد إلا في موضعين: الأول في سورة فاطر، في قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ)[2] وهي مع ذلك مختلف في مكيتها؛ فقد قال ابن عاشور عن سورة فاطر: "وهي مكية بالاتفاق، وحكى الألوسي عن الطبرسي أن الحسن استثنى آيتين: آية (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ) الآية. وآية:(ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا)[3] الآية، ولم أر هذا لغيره"[4]. وأما الآية الثانية المسندة فيها التلاوة للجماعة وهي من سورة الزمر، فقد أسند الفعل فيها للرسُل، وهي قوله تعالى: (أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ)[5] ما يزيد تأكيدا للمتقرر.

ولعل السر في ذلك أن الجماعة المسلمة ما تزال في قلة، وتلك القلة بكونها مضطهدة لم تمنح فرصة تلاوة القرآن جهارا على نحو ما كان في المدينة، فضلا عن أن المعرفة بكيفية التلاوة

---

[1]– إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر: 312/1

[2]– فاطر : 29

[3]– فاطر: 32

[4]– التحرير والتنوير 247/22

[5]– الزمر: 68

يتوقف على زمن لا تكفي من وصفوا بالأميين كي يضطلعوا بها، بل تحتاج إلى فترات التلقين والتلقي حتى يكون فيها متمهرين، ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم هو من يتولى هذه المهمة وحده، إلى أن فتح الله عليه بالنصر فوجد مساندين من قومه، يتلون الكتاب على من لم يسلموا بعد, وعلى صحبهم من المؤمنين. والله أعلم بالصواب.

الثانية: متعلق التلاوة في السور المكية

كما اختلفت صيغ التلاوة واختلف المسندة إليه في النصوص المكية ، اختلف المتلو فيها حسبما تقتضيه حكمة القرآن وبيان التنزيل المكي، وقد اتجه بالأساس إلى الأمور الآتية:

- **القرآن** كما في يونس[1] والنمل[2] والإسراء[3] والقصص[4].
- **الكتاب** كما في العنكبوت[5] وفاطر[6].
- **ما أوحي إلى النبي**: كما في الكهف[7] والعنكبوت[8].
- **الأنباء**: كما في الكهف[9] والقصص[10] والأعراف[11] ويونس[12] والشعراء[13].

---

[1]- آية 16- 61

[2]-آية 94

[3]-آية: 107

[4]- آية: 53

[5]- آية : 51- 47

[6]- آية: 29

[7]- آية: 27

[8]-آية: 45

[9]- آية: 83

[10]- آية : 3

[11]- آية: 175

[12]- آية: 71

[13]- آية: 69

- **الآيات أو آيات الله:** كما في مريم[1] و القصص[2] والجاثية[3] والزمر[4] ويونس[5] والمومنون[6] ولقمان[7] وسبأ[8] والجاثية[9] والأحقاف[10] والقلم[11] والمطففين[12].

- **الذكر** كما في الصافات[13].

- **الأعمال** كما في يونس[14] بقراءة من بينا قراءتهم آنفا.

- وعلى نحو ما لوحظ في توجه الخطاب بالتلاوة إلى معيّنين بنسب متفاوتة للملحظ المذكور، لوحظ هنا أن متعلقات التلاوة متفاوتة النسب أيضا، ولعل البيّن منها توجهه إلى الآيات أو آيات الله في نحو عشر سور، مما يوحي بشيء من الحكمة القرآنية في الخطاب المكي بالتلاوة، وهي لا تنأى عن الحكمة التي أنيط بها إسناد التلاوة:

إن العهد المكي ناسب أن يكون المتلو فيه مُعنىً بالأدلة المورِّثة لليقين بصدق الرسالة، وكليات الدين وأصوله، دون ما كان من تفصيل الأحكام وفروع القيم؛ إذ التصديق بمصدرها أسبق في الإيمان بها منها، ولهذا تعلقت التلاوة في القرآن المكي بالآيات الدالة، بماهي براهين قارعة للنفوس حتى تُرى شواهد الإعجاز ما ثلة بين أعين القوم، تارة تكون بالآيات القرآنية المعجزة بما

---

[1]- آيتان: 58-73

[2]- آية: 45

[3]- آيتان: 6- 59

[4]- آية: 71

[5]- آية: 15

[6]- آيتان: 66- 105

[7]- آية: 7

[8]- آية 43

[9]- آيات: 8-25-31

[10]- آية 7

[11]- آية: 15

[12]- آية: 13

[13]- آية: 3

[14]- 30

هم به أعلم، وهو البيان الصادق الذي وصف في الكتاب بأحسن الحديث، وتارة بالمدركات المشاهدة، تدعوهم آي الله إلى تدبرها وإعمال الفكر فيها حتى يكونوا بالرسالة صادقين وعن شركهم معرضين..[1]

وعلى هذا ألفينا المتلو كذلك هو **أنباء الأمم السابقة**، واردا في خمس سور، تاليا في الترتيب تلاوة الآيات. ولما كانت الغاية من إيراد أنباء الرسل السابقين وأقوامهم إقامة الحجة على المنكرين، وما يحدث لهم حين الجحود والكفر، كانت تلاوتها في العهد المكي[2]، لتقريع الأسماع والإنذار بالوعيد المكتوب على من كفر، سبيلَ الكفرة من أفراد سابق الأمم، على سنن قياس الغائب بالشاهد، وهو ولا ريب شبيه بمتلوِّ الآيات؛ إذ كانت البراهين المنظومة ومشاهد القصص الواقعية على نسق واحد في التأثير والإقناع..

ولهذه النهج الدعوي آثار إيجابية، كان من ورائها أن آمن بهذه الآيات واعتبر بها من أسلم من السابقين الأولين وتابعيهم بإحسان..

❖ مصطلح التلاوة في القرآن المدني:

وتردُّدُ المصطلح في السور المدنية أقل نسبة منه في المكية كما ذكرنا؛ لأن العهد المدني يمتاز عن سابقه بطبيعة المخاطبين بالقرآن؛ إذ كان الغالب فيهم من آمن بالله ربا وبمحمد نبيا، فكان القرآن فيهم يتنزل لتهذيب النفوس وتنظيم العلاقات، وتشريع الأحكام وتقوية الدولة، أي أن التلاوة بما هي تعليم وإعلام بالحجة، قد سارت على نمط يناسب القوم وعهدهم، فكان التشريع العملي هو المهيمن عليه، ولا يحتاج فيه إلى كبير تلاوة لما يثبت صدق الرسالة، أما الكافرون وغيرهم من أهل الكتاب، فكان يتلى عليهم نفس ما يتلى على أهل مكة من زواجر الآيات وما يدعوهم إلى التوبة والإيمان، فهم ما يزالون مفتقرين إلى التصديق بمصدر الرسالة..

---

[1]– وقد ألمح إلى هذا المعنى الراغب في تفسير قوله تعالى: (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [البقرة: 128] فقال "..فلأن أول منزلة النبي – صلى الله عليه وسلم – بعد ادعاء النبوة الإتيان بالآيات الدالة على نبوته، ثم بعده تعليمهم الكتاب، أي تعريفهم حقائقه لا ألفاظه فقط، ثم بتعليمهم الكتاب يوصلهم إلى إفادة الحكمة وهي أشرف منزلة العلم..." [تفسير الراغب: 316/1]

[2]– يقول نور الدين عتر في حديثه عن هذه الخصيصة للسور المكية: " اعتناء القرآن المكي بقصص الأنبياء مع أقوامهم حتى كاد ذلك أن يكون علامة تميزه، إذ لم يوجد قصص الأنبياء في القرآن المدني إلا في سور قليلة.." علوم القرآن: 63

ولما كان ذلك أُبصر التنوع في صيغ التلاوة مسندة إلى متنوع التالين، في متلو مختلف، جاريا على هذا التميز الذي ذكرناه في هذه المرحلة، فلنبين هذين الأمرين في مسألتين:

الأولى: صيغ الورود في القرآن المدني:

وردت صيغة التلاوة في هذا الصنف من السور على النحو الآتي:

- **صيغة الفعل المضارع مسندة إلى النبي** صلى الله عليه وسلم على طريق الخطاب، كما في الآية المدنية من سورة الأنعام المكية[1] وسورة الرعد[2]، ومسندة إليه مكنيا بضمير الغيبة كما في البقرة[3] وآل عمران[4] والجمعة[5] والطلاق[6].

- **صيغة المضارع مضافة إلى المتكلم به** تعالى ذكره، في آل عمران[7] والبقرة[8].

- **مسندة إلى جماعة من أهل الكتاب** في البقرة[9] وآل عمران[10]. وإلى **جماعة المؤمنين** في الحج[11] والآية المدنية من سورة فاطر المكية[12] والبقرة[13].

- ووردت **أمرا مفردا** في سورة المائدة[14] **وجمعا** في آل عمران[15].

---

[1]- آية 151

[2]- آية 30

[3]- الآيتان: 129- 151

[4]- آية 164

[5]- آية 2

[6]- آية 11

[7]- الآيتان: 58- 108

[8]- آية 250

[9]- آية 43 و 113

[10]- آية 113

[11]- الآية 72

[12]- الآية 29

[13]- الآية 120

[14]- آية 27

[15]- آية 93

– وأكثر الصيغ جاءت على **الفعل المبني لما لم يسم فاعله** في سورة الأنفال[1] وآل عمران[2] والحج[3] والنساء[4] والمائدة[5] والأحزاب[6].

– وورد **مصدرا (تلاوة)** في آية واحدة من سور البقرة[7].

والملحظ من هذه الصيغ – بالإضافة إلى مجيئها على الفعل المفيد للتجدد، كما مضى في السور المكية - أنها وردت مسندة إلى نوع خاص من التالين لم تسند لهم في السور المكية الوارد بها المصطلح، وهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، كما تكررت نسبتها إلى المؤمنين بصريح اللفظ تارة، وفحواه فيما بني للمجهول تارة أخرى؛ إذ يصح أن يكونوا ممن يتلون على الآخرين؛ أداء للرسالة وتبليغا لها عن صاحبها عليه السلام.

وفي ذلك دلالة على أن تلاوة القرآن قد تجاوزت مرحلة دعوية كان المسؤول عنها بالأساس هو صاحب الرسالة دون من كان يتلى عليهم من أهل مكة، ما يتلى؛ إذ كان منهم من على أميته لا يزال، ولا يتأتى له تلاوة الآيات، فضلا عن أن يكون من الدعاة إليها، كما أسلفنا، ومنهم من أعرض عنها وفي وسعه أن يتعبد بها. أما في هذا العهد فقد ذاعت المعرفة بالقرآن فأصبح للمسلمين مقدرة على تلاوة الكتاب والدعوة إليه على نحو يثمر لهم الذكرى والعظة والهدى والاستبصار..

كما أبانت الآيات المدنية هذه عن تلاوة أهل الكتاب لكتبهم[8]، وذلك تعبير عن واقع جديد تعايش فيه النبي عليه السلام وصحابته مع من ليسوا من أهل ملتهم، فكان هؤلاء يتلون التوراة،

---

[1]– الآيتان: 2 – 31

[2]– آية 101

[3]– الآيتان: 28– 72

[4]–الآية 127

[5]– الآية 2

[6]– الآية 34

[7]– الآية 120

[8]– وردت اللفظة مسندة إليهم في تلاوة كتبهم، وذلك في قوله تعالى: (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ) [البقرة: 43] وقوله:(وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ) [البقرة: 112] وأسندت إليهم في موضعين آخرين ينظر في المقصود بمتعلق التلاوة فيه، أهو كتبهم أم القرآن...في قوله تعالى: (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ) [البقرة: 120] وقوله :

وأولئك القرآن، في تدافع ديني ومحاورة كان الهدف منها إقامة البرهنة على أهل الكتاب من خلال كتابهم المقدس الذي بشر ببعثة رسول الإسلام محمد عليه السلام. فكان القرآن يؤنبهم عن عدم طاعتهم لمضمون كتابهم ومجانفتهم للحق في غير بينة ولا رشاد.

أما من أسندت إليهم التلاوة في باقي الآي فهو شبيه بما مضى في التنزيل المكي، إذ كان من المخاطبين به في المدينة من لا يزالوا على الوثنية المعهودة في الجزيرة العربية، على نمط أهل مكة، فناسبهم الخطاب المكي نفسه دون ما أحدث في اللغة التشريعية المدنية.

وهذه الاعتبارات الزمنية ملحوظة في متعلق التلاوة في هذه الآيات، وهو موضوع المسألة التالية:

الثانية: متعلق التلاوة في القرآن المدني:

تَنوَّع المتلو المقصود في الآيات المدنية المتردد فيها المصطلح على ما يخدم مقاصد التنزيل الرباني في هذا العهد، ووقع على الأشياء الآتية:

-**تلاوة الأحكام**، وهو مفهوم من مساق الآيات الوارد بها، كما في المائدة[1] والآية المدنية من سورة الأنعام المكية[2] والنساء[3] والحج[4].

- **الكتاب** في البقرة[5] وفاطر[6].

- **الموحى به** كما في سورة الرعد[7].

- **الكتب السابقة** المعبر عنها بالكتاب في سورة البقرة في ثلاثة مواضع[8] والمنصوص عليه بالتوراة في آل عمران[9].

- **الذكر** في آل عمران[1].

(لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ) [آل عمران: 113] لكن أهل الكتاب هنا ملحقون بالجماعة المؤمنة؛ لأنهم ممن آمن بهذه الآيات، فيترجح عدم إلحاقه بالصنف الأول..

[1]- آية 2

[2]- آية 151

[3]- آية 127

[4]- آية 28

[5]- آية 121

[6]- آية 22

[7]- آية 30

[8]- آيات 121- 44- 113

[9]- آية 93

- **الحكمة** في الأحزاب[2].

– **الآيات أو آيات الله** كما في سورة البقرة[3] وآل عمران[4] والأنفال[5] والحج[6] والجمعة[7] والطلاق[8]

– **الأنباء** في المائدة[9].

وفي متعلقات التلاوة هذه نرى تعبيرها عن بنية واقع يختلف عن سابقه، فنيط المتلو فيها كما ترى بما لم يرد له ذكر في القرآن المكي، وهو ثلاثة أشياء:

أ- **تلاوة الأحكام** لما بيناه آنفا من كون هذا العهد سيبسط فيه التشريع وتقنن فيه الأحكام، فتتلى فيه بما يعالج مقتضيات الأحوال ومعاملات الناس، ولهذا ألفي المصطلح متعلقا بها في أربعة مواضع من التنزيل المدني. ولا يوجد له ذكر في القرآن المكي.

ب- **تلاوة الحكمة**، ولا ريب أن الحكمة في الإسلام لا ترقى إليها النفوس ولا تتذوقها إلا بعد رسوخ في التدين، وخشية وإيمان، يتوقف على فترة زمنية لا تناسب صدر الدعوة بالنسبة للقوم، وإن كانت الآيات المتنزلة منذ البداية كلها موصوفة بالحكمة، إلا أن الخطاب بها منوطة بالتلاوة[10]كان في المدينة، في سورة الأحزاب، وكان المتجهة إليه من هم برسول الله ألصق، وهن زوجاته الطاهرات، وإن صح تعميمها للرجال والنساء.

---

[1]– آية 58

[2]– آية 34

[3]– آيات 252– 129 –151

[4]– آيات 108– 164– 113 –101

[5]– آيات 2– 31

[6]– آية 72

[7]– آية 2

[8]– آية 11

[9]–آية 27

[10]– ووردت في السور المكية من غير تعلق بالتلاوة كما في قوله تعالى من سورة لقمان: (ولقد آتينا لقمان الحكمة) [لقمان: 11] وقوله تعالى في سورة ص مخبرا عن النبي داود عليه السلام :(وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) [ص: 19]

ج- **الكتب السابقة**: وهو دلالة أخرى بينة على جريان المصطلح متدرجا به في التنزيل بما يناسب الواقع، إذ لم يكن أهل الكتاب في مكة على نحو ما هم به في المدينة، فكان نصيبهم من الأمر بالتلاوة – وإن كانت لكتبهم - حاضرا في التنزيل، حتى تقوم عليهم الحجة في صدق الرسالة المحمدية، وكان من ثمرات ذلك أن آمن منهم كثير؛ كعبد الله بن سلام، وأسد بن عبيد، وثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية وغيرهم[1]، على ما نبهت عليه آية آل عمران: (مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ)[2].

ولهذا المقصد في المتعلقات الثلاث لم نجد في السور المدنية إضافة التلاوة إلى الأنباء إلا في موضع واحد من سورة المائدة، إذ أكثر ما تتلى القصص في القرآن المكي لمناسبة غرضها لمقاصد التنزيل المكي. والله أعلم.

المطلب الثالث: المفاهيم الجزئية لمصطلح التلاوة في القرآن الكريم:

يستدعي تبصر المفهوم الكلي لمصطلح التلاوة مأخوذا من نصوصه، الوقوف على المعاني الجزئية التي يرجع إليها ذلك المفهوم؛ ذلك أن المفاهيم مهما تعددت للمصطلح الواحد لا تنأى عن جامع تعود إليه، ويمكن أن يصاغ دالا عليها جميعها. وعلى ذلك جاء لفظ التلاوة في القرآن محتملا في مساقاته المعاني الآتية:

الأول: القراءة؛ قراءة المتلو قراءة متكررة، محكمة اللفظ، مواظبا عليها، محققة لأثرها: وهي خصائص مدلول عليها بالمقامات الواردة فيها؛ فما كل قراءة يستعمل لها لفظة التلاوة، حتى تكون بترديد اللسان مع إتقان للقول الرباني، من أجل تبين الحقائق الدينية[3]، ولذلك جيء بها في جل المواضع على صيغة الفعل المضارع المفيد للتجدد والاستمرار, ووردت بهذا المعنى في كثير من الآي، منها قوله تعالى: (إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْءَانَ)[4] وبمعنى القراءة فسرها جماعة من المفسرين، يقول

---

[1]- تفسير ابن كثير 5/2

[2]- آل عمران: 113

[3]- نص الراغب على هذا الفصل مبينا أن التلاوة "أخص من القراءة، فكل تلاوة قراءة، وليس كل قراءة تلاوة، لا يقال: "تلوت رقعتك، وإنما يقال في القرآن في شيء إذا قرأته وجب عليك اتباعه" [المفردات: تلا]

[4]- النمل : 93- 94

البيضاوي: "وأن وأن أواظب على تلاوته لتنكشف لي حقائقه في تلاوته شيئاً فشيئاً، أو[1] اتباعه"[2].
وهو معنى فصله الألوسي مرجحا معنى القراءة فيها على غيره، فقال: (وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْءَانَ) أي أواظب على قراءته على الناس بطريق تكرير الدعوة ... وقيل: أي أواظب على قراءته لينكشف لي حقائقه الرائقة المخزونة في تضاعيفه شيئا فشيئا فإن المواظبة على قراءته من أسباب فتح باب الفيوضات الإلهية والأسرار القدسية..، وقيل أتلو من تلاه: إذا تبعه، أي وأن أتبع القرآن، وهو خلاف الظاهر، ويؤيد ما ذكرناه أولا من المعنى: ما في حرف أبي كما أخرجه أبو عبيد وابن المنذر عن هارون: واتل عليهم القرآن "[3].

ومن ذلك قوله تعالى: (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[4]

يقول ابن عاشور: "ومعنى (يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ): يقرؤها عليهم قراءة تذكير، وفي هذا إيماء إلى أنه يأتيهم بكتاب فيه شرع"[5].

وهو نص منه على أن التلاوة لا تعني مجرد القراءة، ما لم يصحبها تذكير وتكرير لتحقيق المراد، وهو ما نبه عليه صاحب المنار، فقال: "وتلاوتها: ذكرها المرة بعد المرة لترسخ في النفس وتؤثر في القلب".[6] ومن هنا كان مجيئها بالمضارع "للإشارة إلى أن هذا الكتاب تتكرر تلاوته"[7].

وفي قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ)[8] استعملت التلاوة بهذا المعنى كذلك، يقول الألوسي: (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ) أي يداومون على قراءته حتى صارت سمة لهم وعنواناً، كما يشعر به صيغة المضارع ووقوعه صلة واختلاف الفعلين"[9]. وهو معنى توارد عليه كثير من المفسرين[1]، حتى أطلقوا

---

[1]– عطف على "تلاوته"
[2]– تفسير البيضاوي 281/4
[3]– روح المعاني: 248/10
[4]– البقرة: 129
[5]– التحرير والتنوير 723/1
[6]– تفسير المنار 388/1
[7]– التحرير والتنوير 723/1
[8]– فاطر: 29
[9]– روح المعاني 365/11

على هذه الآية: آية القراء، يقول الطبري: "إن الذين يقرءون كتاب الله الذي أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم....." ثم روى عن قتادة قال: "كان مطرف إذا مر بهذه الآية: (إن الذين يتلون كتاب الله) يقول: هذه آية القراء"[2].

هذا ولا يحصل التأثر في القراءة إلا إذا كانت على ترسل وتبين، جارية على نمط **الترتيل** المعهود في قراءة النبي صلى الله عليه وسلم، مفسرا بفعله كيف تمارس التلاوة المأمور بها في الكتاب، وإن لم ينص على هذا في تفسير التلاوة في النصوص المذكورة، فهي مأمور بها ولا ريب، ببيان القرآن في الأمر بالترتيل أولا، وبفعل النبي عليه السلام أخرى، كما سيرد ذلك في حينه مفصلا.

والمحصل من كلام جماعة من المفسرين في تفسير ما حمل على القراءة من آي التلاوة، أمور:

أولها: أن هذه القراءة تتحقق غايتها بالمداومة والتكرار، حتى تكون لقارئها سمته وملازمها علمه.

الثاني: يلزم عن القراءة التدبر للمتلو والخشوع وتأثر القلب، ويحصل بفهم المعاني والدلالات، إذ بفهم المعنى مع حضور القلب يحصل التأثر الذي لا يحصل بمجرد ترداد القول على اللسان. وهو لازم القراءة المترسلة المحكمة المرتلة الجارية على سنة القراءة المعهودة المروية صفتها عن خير سلف.

الثالث: أن التلاوة بمعنى القراءة فيها معنى القول والسرد، كما فسر به قوله تعالى: (قُلْ تَعَالَوْاْ اَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ)[3]. وهو معنى جزئي آخر للتلاوة سنعرض له بعد حين.

المعنى الثاني: الاتباع والعمل: وهو مدار المصطلح بعد المعنى الأول، ويترتب عنه الانقياد لأحكام ما يتلى؛ من تحليل حلاله وتحريم حرامه، على نحو ما فسر به قوله تعالى: (وَاتْلُ مَا أُوحِيَ

---

[1]- ويصح حملها على الاتباع كذلك، وإن كان المعنى الأول أرجح فيها، يقول ابن عطية: "وإن جعلناها بمعنى يتبعون صح معنى الآية ، وكانت في القراء وغيرهم ممن اتصف بأوصاف الآية" [المحرر الوجيز: 503/4]

[2]- جامع البيان: 463/20- 464

[3]- الأنعام: 152 يقول ابن عاشور: "والتلاوة: القراءة، والسرد وحكاية اللفظ... " [التحرير والتنوير: 157/8]

إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ)[1] المعنى: واتبع يا محمد ما أنزل إليك من كتاب ربك، والزم تلاوته والعمل بما فيه"[2].

وكذلك فسر به قوله تعالى: (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ) يقول أبوعبيدة: (يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ) أي يحلّون حلاله، ويحرّمون حرامه".[3] وذلك من لوازم اتباعه والعمل بأحكامه.

ولما حكى الطبري فيه وجهين من التأويل (القراءة، والعمل) رجح الاتباع قائلا: "والصواب من القول في تأويل ذلك أنه بمعنى: يتبعونه حق اتباعه، من قول القائل: ما زلت أتلو أثره، إذا اتبع أثره؛ لإجماع الحجة من أهل التأويل على أن ذلك تأويله"[4] وتفصيل هذا المدلول المتضمن للعمل بالمتلو[5] وتحكيمه في قول قتادة، قال: "أحَلُّوا حلاله، وحرموا حرامه، وعملوا بما فيه، ذكر لنا أن ابن مسعود كان يقول: "إن حق تلاوته: أن يحل حلاله، ويحرم حرامه، وأن يقرأه كما أنزله الله عز وجل، ولا يحرفه عن مواضعه"[6] وبذلك كان تأويل ابن عطية له، حيث قال : و"يتلونه" معناه يتبعونه حق اتباعه؛ بامتثال الأمر والنهي وقيل: يتلونه يقرؤونه حق قراءته "[7].

وربما هذا المعنى هو الأصل في المصطلح، وتفرعت عنه باقي المعاني، كما تقدم في الدلالة اللغوية، وعليه قوله تعالى : (وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا ۝٢)[8] يقول الراغب: "أراد به هاهنا الاتباع على سبيل الاقتداء والمرتبة، وذلك أنه يقال: إن القمر هو يقتبس النور من الشمس، وهو لها بمنزلة الخليفة"[9].

ومنه قوله تعالى: (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ)[10] أي يتبعه، ومعنى الآية: "ويتلوه: ويتبع ذلك البرهان شاهد منه؛ أى شاهد يشهد بصحته، وهو القرآن منه من الله، أو

---

[1]– الكهف: 27

[2]– الهداية إلى بلوغ النهاية: مكي بن أبي طالب القيسي. 4363/6

[3]– مجاز القرآن: 33

[4]– جامع البيان 569/2

[5]– سيرد بيان مفصل عن المراد بالكتاب في الآية، والغرض هنا بيان معنى المصطلح، مهما كان المكني فيها...

[6]– جامع البيان: 569/2

[7]– المحرر الوجيز : 204/1

[8]– الشمس: 2

[9]– مفردات ألفاظ القرآن: تلا

[10]– هود : 17

شاهد من القرآن"[1]. وأكثر بيانا من هذا التفسير – إذ كانت الآية من مغلقات الكتاب لكثرة الاحتمالات فيها[2]- قول ابن عاشور: "وفعل (يتلوه) مضارع التّلو وهو الاتّباع، وليس من التلاوة، أي يتبعه. والاتباع مستعار للتّأييد والاقتداء، فإن الشاهد بالحق يحضر وراء المشهود له. وضمير الغائب المنصوب في قوله : (يتلوه) عائد إلى من كان على بينة من ربه"[3].

والمستخلص من هذا البيان أن الاتباع والعمل وما يتفرع عنهما، من متضمن دلالة التلاوة للقرآن أو لأحد الكتب السماوية، حسبما ورد به النظم القرآني، وهو ما أجمله الراغب بقوله: "والتلاوة تختص باتباع كتب الله المنزلة، تارة بالقراءة، وتارة بالارتسام لما فيها من أمر ونهي، وترغيب وترهيب. أو ما يتوهم فيه ذلك"[4].

فإن قيل: ليس سبيل التلاوة بمعنى الاتباع واردا في مقام تلاوة آي القرآن، وما فيه من تحليل وتحريم، وإنما ورد –كما سيق- في تلاوة القمر للشمس، وتلاوة الشاهد لمن كان على بينة من ربه من اليهود والنصارى، وتلاوة أهل الكتاب لآي كتبهم، فكيف يجعل معنى ثانيا للتلاوة في القرآن؟

والجواب من وجهين:

أحدهما: أن الغاية من تتبع هذه المعاني هو إقامة المصطلح كما استعمل في القرآن، أنى كان سياقها ومتعلقها، دون إفراد البحث بمتعلق خاص هو القرآن، حتى إذا تبصرت دلالته كما يراد لها في النظم القرآني، أجريت بذلك المعنى على سائر المتعلقات؛ قرآنا كانت أو الكتب السماوية السابقة.

ثانيهما: أن تخصيص ما سيق من الآي بالكتب السابقة لم يسلَّم عند جميع المفسرين، فآية البقرة قيل إن المراد بها: القرآن[5]، فجائز إذن أن يكون متعلق التلاوة في تلك الآية أهل الكتاب في تلاوة كتبهم، وأمة محمد عليه السلام في تلاوتهم للقرآن، لصحة المعنى في كليهما، وعدم التنافي فيها الموجِب تناقضا في الكتاب، إذ إعمال القولين في تفسير بعض المحتمل من غوامض التنزيل أفضل من الاقتصار على الواحد، وهو نهج جماعة من المفسرين.

---

[1]– الكشاف 385/2

[2]– تنظر في تفسير الطبري : 277/15

[3]– التحرير والتنوير 25/12

[4]– مفردات ألفاظ القرآن: مادة تلا

[5]– سيرد بيان مفصل عن هذه الآية

المعنى الثالث: السرد أو القص: واستعملت التلاوة بهذا المعنى في إسنادها إلى الأنباء المقصوصة، ولذلك حسن تفسيرها باللفظ المناسب للقصص، وهو السرد، وإن كان المعنى متقاربا بين القراءة والسرد، وإنما جاز تفسيرها بذلك؛ لأن في السرد والقص معنى الإتباع كما في التلاوة[1].

واستعملت بهذا المعنى في كثير من النصوص، منها قوله تعالى: (وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ)[2] قال ابن عطية: "اتل، معناه اسرد، وأسمعهم إياه"[3].وقوله تعالى: (نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ)[4] فسرت بالقراءة والسرد لاحتمالها لهما، ففي البحر المحيط: "نتلو، أي نقرأ عليك بقراءة جبريل، أو نقص"[5]وقال ابن عطية: "معناه نقص ونتابع القصص"[6]، وقال ابن كثير: (نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ) كما قال تعالى: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ)[7] أي: نذكر لك الأمر على ما كان عليه، كأنك تشاهد، وكأنك حاضر"[8] ففسرها بنظيرتها، اعتبارا بتشابه مقام الآيتين، فرادف بين فعل "نقص" في يوسف ب"نتلوا" في المائدة.

ومنه قوله تعالى: (ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ)[9] وهو قيل يحكي قصة آية من آيات الله في خلقه، وهي ولادة عيسى عليه السلام، فتكون لفظة التلاوة فيها على نمط سابقتها، ولهذا تردد الراغب في اختيار مرادف أمثل لكلمة "نتلوا"، فرأى وجهين كلاهما محتمَل، لتقارب معناهما دلالة على المعنى في الآية، ورام تمييزهما مع لفظة التلاوة فقال: "التلاوة والتنزيل والقص

---

[1]– وأصل القصص في العربية إتباع الشيء بالشيء [الفروق للعسكري ص: 430] والسرد كذلك "يدل على توالي أشياء كثيرة يتصل بعضها ببعض" [معجم مقاييس اللغة: سرد]

[2]– المائدة : 30

[3]– المحرر الوجيز 178/2

[4]– القصص: 2

[5]– البحر المحيط 285/8

[6]– المحرر الوجيز 275/4

[7]– يوسف : 3

[8]– تفسير ابن كثير 220/6

[9]– آل عمران : 58

متقارب، لكن يقال: التلاوة اعتبارا بمساوقة بعض الكلام بعضا بالولاء. والإنزال اعتبارا بإخبار الأعلى الأدون، والأرفع للأوضع. والقص اعتبارا باقتطاع الخبر على ما هو به، وقص أثره"[1].

أما الرازي فتعين عنده أن يكون القص هو الأنسب بالتأويل في هذه المساقة، متوقفا على سر إضافة الضمير إلى المتكلم سبحانه فقال: "التلاوة والقصص واحد في المعنى، فإن كلا منهما يرجع معناه إلى شيء يذكر بعضه على إثر بعض، ثم إنه تعالى أضاف التلاوة إلى نفسه في هذه الآية، وفي قوله (نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسِىٰ)[2] وأضاف القصص إلى نفسه فقال : (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ)[3] وكل ذلك يدل على أنه تعالى جعل تلاوة المَلَك جارية مجرى تلاوته سبحانه وتعالى، وهذا تشريف عظيم للملك، وإنما حسن ذلك؛ لأن تلاوة جبريل صلى الله عليه وسلم لما كان بأمره من غير تفاوت أصلاً أُضيف ذلك إليه سبحانه وتعالى"[4].

وبالجملة فإن لموضوع الآية أثرا كبيرا في انتقاء لفظة تعبر عن مفهوم لفظة التلاوة فيها، وكان المفسرون على ذكر منه أبدا، فانتقوا كما ترى ما يتناسب مع عادات القرآن في التعبير عن مثيلاتها، كما لحظنا في استحضارهم آية يوسف "نحن نقص" في أكثر من موضع فيه تلاوة الأنباء. وعليه فما كان فيه قصة أو سرد لحالة من الأنباء فالأنسب أن تفسر لفظة التلاوة فيه بالسرد أو القص أو الذكر.

فإن قيل: فما تَرى من فرق بين القراءة والسرد حتى تعدهما معنيين للتلاوة؟

الجواب أن السرد منوط بالقصص، ولا يقال لتلاوة الأحكام والآيات وغيرها؛ فإن الأمر بسرد القصص أمر بإلقاء مشاهدها للمتوجهة إليه، كي يلحظ غاياتها من بدايتها إلى نهايتها، والقراءة تتم بجزء منها دون بقيتها، وتصبح الغاية حينئذ ليست براجعة إلى أهداف القصة بذاتها، بل تكون من أجل إشارات ثانوية ومعان جزئية بثت في ثنايا مشاهد الأنباء. والله أعلم.

المطلب الرابع: المعنى الكلي لمصطلح التلاوة في القرآن الكريم

بوسعنا بعد استخلاص المعاني الجزئية لهذا المصطلح، أن نرجعها إلى معنى كلي أقرب ما يكون إلى رسم جامع لها، تنضم به تلك المعاني حتى تصير كوحدة كلية قابلة للتصور في الأذهان، وتحيل على عملية لها أسس ومقتضيات شأن كل المفاهيم القرآنية، فنقول:

---

[1]- تفسير الراغب 598/2

[2]- القصص: 2

[3]- يوسف : 3

[4]- مفاتيح الغيب 242/8

التلاوة في اصطلاح القرآن الكريم هي: **قراءة آي القرآن وسرد أنبائه؛ بإحكام ألفاظها، وتدبر مضامينها، للعمل بموجبها.**

ففي قولنا: "**قراءة آيه**" تنبيه على أن المدار في التلاوة (كمفهوم كلي له مقتضيات) على القراءة أولا، بما هي ترديد اللفظ القرآني على اللسان، إذ لا يتحقق المرء من حقائق القرآن ويتعرف أسرارها، مالم يرددها على لسانه مرات ومرات.. ويندرج في القراءة: سرد آي القصص، الذي هو عنصر جزئي لا يختلف كثيرا عن قراءة الآيات، إلا أن فيه تنبيها على أن استيعاب آي القصص لا يتحقق منه إلا بعد تمام سردها على المراد الإلهي، بخلاف القراءة، فقد تتحقق بقطعة من القرآن دون إتباعها ما بعدها. ولذلك كان السرد من خواص هذا التعريف قد لا يستغنى عنه بالقراءة.

غير أن القراءة للآي عامةً، والسرد لآي القصص خاصةً، لا بد أن يجريا على نمط خاص هو المنبه عليه في العنصرين الآتيين، وهما:

– **إحكام ألفاظ التلاوة**: بإعطائها حقها في النطق بها على مقتضى الترتيل المأمور به في قوله تعالى: (وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا)[1] وهو نمط مجمل في التنزيل، بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم بسنته، وهو كيفية الأداء اللفظي للحرف القرآني المفصل في علم التجويد، كما سنجليه في الفصل الثالث من هذه الدراسة.

– **تدبر مضامينها:** وهو من تمام التحقق للتلاوة، وذلك يستدعي فهم المعنى القرآني وحصول التأثر والخشية عند التلبس به.

ومن شأن هذين العنصرين أن يثمرا غاية التلاوة المتضمنة في هذا التعريف، وهي:

العمل بموجب المتلو، إذ كان الأصل في التلاوة كما أسلفنا هو الاتباع المستلزم للعمل بما يتلى، وتحليل حلاله، وتحريم حرامه.

خاتمة هذا الفصل:

لقد تبينا في قضايا هذا الفصل مسائل عدة نحاول استجماعها في النقط الآتية:

– التلاوة جرت في العرف اللغوي على الاتباع، وحملت عليه القراءة، ولم يلحظ اللغويون فيها إلا إتباع اللفظ نظيره، إلا أن الاصطلاح القرآني صبغ هذا المعنى لبوسا خاصا يستدعي تبينه.

– بإحصاء موارد المصطلح في القرآن؛ وصفا لصيغها وأحوالها الإسنادية، تبينت أسرار في التنوع الحاصل في لفظة "التلاوة" ومتعلقاتها في القرآن المكي والمدني، ترجع بالأساس إلى طبيعة

[1] – المزمل : 3

الدعوة الإسلامية في المرحلتين. كما ألفي بعد الدراسة النصية للمصطلح: أن مصطلح التلاوة في القرآن يجري على ثلاثة معان مترابطة فيما بينها، وهي: القراءة المحلاة بالإحكام اللفظي، والتأمل الذهني المصاحب للمداومة والاستمرار- الاتباع لمضامين ما يتلى – السرد لآي القصص، باعتبار السرد عملية تستدعي التتابع إلى متم الحدث.

– ومن كل هذه العناصر خلصنا إلى مفهوم التلاوة في القرآن الكريم المرسوم على الشكل الآتي، وهو: قراءة آي القرآن وسرد أنبائه، بإحكام ألفاظها وتدبر مضامينها، للعمل بموجبها.

وإذ حصلنا هذا المعنى الكلي للتلاوة، فلا بد وأن نتتبع ما يعد كتنزيل له على نصوص ورد فيها بمختلف الضمائم، وكذلك ما يجري على منواله مما له به علقة وينتمي لأسرته، حتى إذا تبصرنا كل ذلك مفككا أفادنا تفصيلا لمجمل الرسم المذكور، وبيان ذلك في الفصل الآتي:

الفصل الثاني: ضمائم المصطلح وأسرته المفهومية

ولاستيعاب مقتضيات التلاوة المتقررة في المفهوم السالف، نسعى في هذا الفصل إلى تتبع ضمائم المصطلح متبصرين فيها فروع التلاوة باختلاف مسنداتها، ثم نضمها إلى ما له بالمصطلح نسب أثيل يأخذ من مشكاته وينحو في الدلالة والغاية منحاه، ونرسم ذلك في مبحثين، تشعبت منهما مطالب ومسائل: مبحث في الضمائم، ومبحث في الأسرة المفهومية:

المبحث الأول: ضمائم المصطلح

وضمائم التلاوة في الكتاب لم ترد بصيغ إضافية أو وصفية جلية، وإنما فهمت من الجملة القرآنية الواردة فيها، وهي ضمائم إسنادية في الجملة الفعلية، إلا ضميمة واحدة جاءت لفظة التلاوة فيها بصيغتها المصدرية[1].. وعليه، فلنُجر هذه الضمائم المفهومة مجرى المنطوقة كالتركيب الإضافي في معظمها والوصفي في الموضع الواقعة فيه مصدرا، ونتوقف عند دلالاتها واحدة واحدة، وذلك في مطالب أربعة:

[1]– في قوله تعالى: (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ) [البقرة: 120]

المطلب الأول: تلاوة الكتاب وما إليه (الكتاب – القرآن - الذكر)

من النصوص في ذلك قول الله تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾)[1] وقوله عز ذكره: (اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ)[2] وقوله تعالى ذكره: (وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ)[3]وقوله تعالى : (وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٢﴾ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَ)[4] وقوه جل جلاله: (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ)[5] وقوله تعالى: (فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا)[6] وقوله سبحانه: (ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ)[7]

وهذه الضمائم متحدة المتعلق وهو كلام الله المنزل، وتلاوته هي بنفس المعنى الذي بينا، مضافا إليه معنى الضميمة المتجلية في نوع الاسم المسمى به، أو الصفة الموصوف بها، وهو واحد من الأشياء الثلاثة: الكتاب – القرآن – الذكر:

1- **تلاوة الكتاب**: مدار مادة كتب على جمع شيء إلى شيء آخر[8]، ثم يستعمل فيما ضم من الحروف بعضها إلى بعض في الخط والقراءة، ومن ثم سمي الكتاب؛ لأنه مكتوب فيه، ومضموم بعضه إلى بعض خطا أو تلاوة[9]. وثمة سر آخر في تسميته بالكتاب يناسب ما نحاول إثباته في هذه الضميمة، ألمع إليه الدكتور عبد الله دراز فقال: "روعي في تسميته قرآنا كونه متلوا بالألسن، كما روعي في تسميته كتابا كونه مدونًا بالأقلام، فكلتا التسميتين من تسمية شيء بالمعنى الواقع عليه. وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد،

---

[1]– فاطر : 29

[2]– العنكبوت: 43

[3]– العنكبوت: 48

[4]– النمل: 92

[5]– يونس: 61

[6]– الصافات: 3

[7]– آل عمران : 57

[8] – معجم المقاييس: مادة كتب

[9]– ينظر القاموس: كتب

أعني أنه يجب حفظه في الصدور، والسطور جمعيًا؛ أن تضل إحداهما فتذكر الأخرى، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب المنقول إلينا جيلا بعد جيل على هيئته التي وضع عليها أول مرة، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر. وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية اقتداء بنبيها بقي القرآن محفوظا في حرز حريز"[1].

فلعل السر – إذن-في ضم التلاوة إلى القرآن بتسميته كتابا، مراعاة كونه مكتوبا؛ بأن يتلى منظورا فيه ومعتنى بحفظ رسمه من تحريف الكتَبة، ومن ثم يحصل التعبد بجمعه في السطور والصدور بشرطهما، فكل ذلك من تمام تلاوته.

ولعل شاهده في قوله عز ذكره : (وَٱتۡلُ مَا أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِ)[2]

فأخبر تعالى عن حفظ كلمات كتابه بعد أمره بتلاوته، وكأن المعنى في الجمع بين قضيتين في مساقة واحدة أن التلاوة كما تتجه إلى الأداء الصوتي يلزم أن تعنى باللفظ المرسوم المنزل أيضا، حفظا له من التبديل أيّ تبديل، متعلقا باللفظ أو المعنى، والله حافظ كتابه لا مغير له أبدا.

2- **تلاوة القرآن**: والقرآن مصدر بمعنى القراءة، وسمي القرآن بذلك لكونه متلوا بالألسن[3]، أو مصدرٌ بمعنى قرأت الشيء: إذا جمعته، وسمي بذلك لجمعه ما فيه من الأحكام والقصص وغير ذلك[4]، أو لكونه جامعا لثمرة كتبه، بل لجمعه كما قال الراغب: ثمرة جميع العلوم"[5].

وعليه فدلالة "**التلاوة**" مضافا إليها "**القرآن**" لها ميزة دلالية لا تكون بإضافته لأعلام الكتاب الأخرى،[6]وهي بعد النظر في معنى مفرديها: "التلاوة و القرآن" توحي إلى بذل الجهد في اقتراء

---

[1]- النبأ العظيم: 12

[2]- الكهف : 27

[3]- النبأ العظيم: 12

[4]- معجم مقاييس اللغة : قري

[5]- المفردات : قرأ

[6]- إذ لكل كلمة في القرآن معنى ولكل تركيب مغزى، يقول الزركشي: "فعلى المفسر مراعاة الاستعمالات، والقطع بعدم الترادف ما أمكن؛ فإن للتركيب معنى غير معنى الإفراد، ولهذا منع كثير من الأصوليين وقوع أحد المترادفين موقع الآخر في التركيب، وإن اتفقوا على جوازه في الإفراد" [البرهان في علوم القرآن: 78/4]

مداليل الكتاب، وإحكام ألفاظه لا كتناه ثمرات العلوم التي ضمه في ثناياه. أي يستحضر فيه معنى الضم المدلول عليه بالقرآن، كما استحضر معنى الكتب والضبط في "تلاوة الكتاب" والله أعلم.

3- **تلاوة الذكر:** يطلق الذكر في اللغة على معنيين: أحدهما ضد النسيان، والثاني: الصيت والثناء. قال الله تعالى: (ص وَالْقُرْءَانِ ذِي الذِّكْرِ)[1] أي ذي الشرف.[2] وسمي القرآن ذكرا –كما قال الطبري- لمعنيين: أحدهما: أنه ذكر من الله جل ذكره، ذكّر به عباده، فعرَّفهم فيه حدوده وفرائضه، وسائر ما أودعه من حكمه. والآخر: أنه ذكر وشرف وفخر لمن آمن به وصدق بما فيه، كما قال جل ثناؤه:(وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ)[3] ، يعني به أنه شرف له ولقومه"[4].

وضم التلاوة للذكر في القرآن وارد في سياقين خبريين من الله جل ذكره:

أحدهما: في قوله تعالى إخبارا عن نفسه ومخاطَبه نبيَّه : (ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ)[5] أي "هذه الأنباء التي أنبأتك بها عن عيسى وأمه مريم وأمها، وزكريا وابنه يحيى، وما قصّ من أمر الحواريين واليهود من بني إسرائيل نقرئها لك على لسان جبريل، وهي من القرآن الحكيم الذي يبين وجوه العبر في الأخبار والحكم في الأحكام، فيهدي المؤمنين إلى لب الدين وفقه الشريعة، وأسرار الاجتماع البشري"[6].

والثاني: في الخبر عن الملائكة في قوله تعالى: (وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا)[7] أي لا تفتر ألسنتهم من قراءة كتب الله وغيرهما من التسبيح والتقديس. يقول البقاعي في تفسير الذكر في الآية: " أي موعظة وتشريفاً وتذكيراً من ذكر ربهم إفاضة على غيرهم من روح العلم".[8]

وفي كلا الموضعين إشارة إلى ما ينبغي أن يكون عليه حال التالين لهذا الكتاب، وهو أن يتلوه على أنه كتاب جليل الشأن ذو شرف رفيع، وأنه تذكرة من الله لهم بما فيه من الحكم والأحكام.

---

[1]- ص: 1

[2]- ينظر معجم المقاييس ومختار الصحاح: ذكر

[3]- الزخرف: 43

[4]- جامع البيان 99/1

[5]- آل عمران : 57

[6]- تفسير المراغي 171/3

[7]- الصافات: 1- 3

[8]- نظم الدرر 190/16

ومن ذلك ندرك معنى هذه الضميمة "**تلاوة الذكر**" أي قراءة القرآن قراءة اعتبار وتذكُّر يحسان صاحبها بشرف مصاحبته لهذا الكتاب. وهو المنبه عليه فيما روي في الحديث: "من اوتي القرآن فر.."

المطلب الثاني: تلاوة الآيات

ووردت مسندة إلى المتكلم بها في مواضع، كما في قوله تعالى: (تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِ)[1] وإلى مجهول يصح أن يكون الرسول وغيره تارة أخرى، وذلك في أكثر مواضع ورود المصطلح، كما تقدم إحصاؤها، من مثل قوله تعالى: (وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ)[2] وقوله سبحانه: (وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)[3] وقوله عز ذكره: (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ)[4] وأسندت إلى الرسول عليه السلام في مواضع، من مثل قوله عز ذكره: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)[5].

ودلالة الآيات في القرآن تجري على معان منها: العلامات، وآي القرآن، والمعجزات، والعبر[6]، وهي كما ترى تؤول إلى معنى الدلائل القاطعة على صدق من تنزلت عليه[7]؛ آيات التيسير كانت أو آيات التسخير، بحيث تكون لقارئها وناظريها آثارا للاهتداء ومحتدا للانقياد إلى خالقها ومنزلها.[8]

---

[1]- البقرة: 252

[2]- آل عمران: 101

[3]- الأنفال: 1

[4]- يونس: 15

[5]- الجمعة 2

[6]- ينظر: الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز: الدامغاني 1/

[7]- يقول الدكتور أحمد عبادي : وردت لفظة "آية" في القرآن المجيد 386 مرة ، وبالاستقراء لجميع مواقع ورود اللفظ يتبين أن المراد بالآية: العلامة الباهرة" [مفهوم الترتيل: 179]

[8]- يقول ابن عاشور : "فالآيات جمع آية وهي الجملة من جمل القرآن، سميت آية لدلالتها على صدق الرسول بمجموع ما فيها من دلالة صدور مثلها من أمي لا يقرأ ولا يكتب، وما نسجت عليه من نظم أعجز الناس عن الإتيان بمثله، ولما اشتملت عليه من الدلالة القاطعة على توحيد الله وكمال صفاته دلالة لم تترك مسلكا للضلال في عقائد الأمة بحيث أمنت هذه الأمة من الإشراك" [التحرير والتنوير 723/1]

وعلى هذا فتلاوة الآيات وإن كانت مسندة إلى منزلها، ففيها إشارة إلى كيفية تلاوتها أو النظر فيها، وعليه فلا تتحقق هذه التلاوة إلا بما يثمر هذه الحقيقة الكائنة في الآيات الربانية، وهو ما نبه عليه صاحب المنار في تفسيره لآية البقرة في وصف مهمة نبينا محمد: (يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ)[1] أي "الدالة على وحدانيتك وتنزيهك وعظمة شأنك، والدالة على صدق رسلك إلى خلقك، فالمراد بالآيات: الآيات الكونية والعقلية، أو المراد آيات الوحي التي تنزلها عليه، فتكون دليلا على صدقه، ومشتملة على تفصيل آيات الله في خلقه، كبراهين التوحيد والتنزيه ودلائل النبوة والبعث. وتلاوتها: ذكرها المرة بعد المرة لترسخ في النفس وتؤثر في القلب"[2]

ففي ضم التلاوة إلى الآيات معنى مزيد على ما سواه، يوجبه مدلول الآيات، الملحوظ فيها معنى المشاهدات والدلائل المزعزعة لكيان الإنسان، تدعوه بقوة آثارها إلى الاستسلام لما بث فيها من أسرار ملكوتية، فلا تكون تلاوتها حق التلاوة إلا بمصاحبة هذه اللوازم، أي لا يظن أن الخطاب بها من أجل ترددها على اللسان دون مشاهدتها بعيني البصيرة والبصر..

وبالجملة فمفهوم تلاوة الآيات هو : الاعتبار بالدلائل المشاهدة في الكون المنظور، والدلائل الناطقة في الكتاب المسطور، طلبا للتعرف على الحقيقة المطلقة، من أجل الانقياد لها وازدياد الإيمان بها. كما دلت عليه آيات منها: (إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩)[3] وقوله: (وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ)[4].

المطلب الثالث: تلاوة الأنباء، والأحكام، والحكمة:

أ- **تلاوة الأنباء** : ووردت في مواضع تقدم ذكرها، منها قوله تعالى: (وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ)[5] وقوله: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا)[6] (وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ) وقوله تعالى: (نَتْلُواْ عَلَيْكَ

---

[1]- البقرة: 128

[2]- تفسير المنار 388/1

[3]- مريم: 58

[4]- آل عمران: 101 يقول الرازي معلقا على هذه الآية: "والمراد منه المنع والتغليظ؛ وذلك لأن تلاوة آيات الله عليهم حالاً بعد حال مع كون الرسول فيهم الذي يزيل كل شبهة ويقرر كل حجة كالمانع من وقوعهم في الكفر فكان صدور الكفر على الذين كانوا بحضرة الرسول أبعد من هذا الوجه" [مفاتيح الغيب 309/8]

[5]- الشعراء: 69

[6]- المائدة: 29

[7]- الأعراف: 175

مِن نَّبَإِ مُوسىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُومِنُونَ)[1]

وللأنباء المقصوصة في القرآن مقاصد أهمها أن تكون للعالمين تذكرة وعبرة وإيقاظا من الغفلة، ولهذا لم يرد في الكتاب من الأنباء إلا ما كان جليل الشأن يحقق هذه الغاية، كمشاهد مثيرة من حياة الرسل وأقوامهم، وأنباء عن تدبير الله في الكون .. ولهذا فسرت في الكتاب بهذا المعنى فقال الراغب: "النبأ: خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن، ولا يقال للخبر في الأصل نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة"[2] فكيف تفسر إذن لفظة التلاوة إذا انضمت إلى الأنباء؟

قد سبق تفسير ذلك، وأنها تعني سرد مشاهدها تباعا إلى منتهاها، من أجل الاعتبار بها وتحصيل مقاصدها. أي أن من شرط تلاوتها أن لا تجَزَّأ خلاف ما هي عليه دن إتمامها، وأن لا تبت عن مقاصد تنزلها. وهذا معنى السرد والقص في اللسان العربي، إذ لو لم يكن المعنى كذلك لعبر بالقراءة أو نحوها بدل التعبير بالتلاوة. ومن هنا قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: (نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُومِنُونَ) قال: "كما قال تعالى: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ)[3] أي: نذكر لك الأمر على ما كان عليه، كأنك تشاهد، وكأنك حاضر"[4].

هذا وإن وقعت هذه الضميمة في مقام خطاب النبي صلى الله عليه وسلم فلا ريب وأن دلالتها تقتضي خطاب أمته، فلا تقع منهم تلاوة لأنباء الكتاب إلا بنحو ما أمر به نبيهم رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام.

ب- تلاوة الأحكام:

وفهمت هذه الضميمة من مساقات الآي التي أبانت عن أحكام تشريعية، أخبر سبحانه وتعالى عن تلاوتها على من خوطبوا بها من أمة محمد عليه السلام، من مثل قوله تعالى: (أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ)[5] وقوله تعالى ذكره: (وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى

---

[1]- القصص: 2

[2]- مفردات القرآن: 608

[3]- يوسف : 3

[4]- تفسير ابن كثير 220/6

[5]-المائدة : 2

النِّسَاءِ)[1] وقوله: (وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ)[2] وقوله سبحانه: (قُلْ تَعَالَوْا اَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾[3].

ومفاد التلاوة عند تعلقها بالأحكام هو **بيان مفصل** لما ذكر بعدها؛ لأن العمل بالأحكام الشرعية متوقف على تبينها واتضاحها، ولذلك ألفينا مصاحبة **الإفتاء** للتلاوة في آية المائدة، دلالة على أنهما من بابة واحدة فيما تعلقتا به، حتى وإن صح تفسيرها بالقراءة فمن شرط تلك القراءة الإبانة عن المقروء. ولذلك قال ابن عاشور في تفسير هذه الآية: "وقوله : (وما يتلى عليكم) عطف على اسم الجلالة، أي ويفتيكم فيهن ما يتلى عليكم في الكتاب، أي القرآن، وإسناد الإفتاء إلى ما يتلى إسناد مجازي؛ لأن ما يتلى دال على إفتاء الله، فهو سبب فيه، فآل المعنى إلى: قل الله يفتيكم فيهن بما يتلى عليكم في الكتاب، والمراد بذلك بما تلي عليهم من أول السورة، وما سيتلى بعد ذلك، فإن التذكير به وتكريره إفتاء به مرة ثانية، وما أتبع به من الأحكام إفتاء أيضا"[4].

ولا حظ صاحب المنار أن تأخير هذه الآية إلى آخر السورة - وقد كان موضوعها مذكورا في بدايتها- إنما هو لحاجة الناس إلى مزيد بيان لتلك الأحكام، بعد أن نشبت أسباب تدعو للبيان المفصل[5]. وعلى هذا المعنى يحمل (قُلْ تَعَالَوْا اَتْلُ مَا حَرَّمَ.) أي اقرأه لكم وفيه بيان مفصل لما حرم عليكم.

والمعنى الإشاري المستفاد من هذا البيان أن يكون الدعاة المعنيون بتبليغ أحكام الدين على ذُكر أبدا بمنهج تلاوة أحكام الله، واعين بخطى تبليغها على ما يحقق الفهم في الدين والفقه فيه، وذلك بأن يبثوا تلك الأحكام في الأمة بينة المعنى والمغزى، منوطة بمقاصدها، كما كان رسول الله يبلغها في القوم. وذلك يستدعي معرفة واسعة بالكتاب السنة وعلوم الشريعة على منهاج الأئمة الفضلاء المجتهدين .. وقد تعاقبت على الدعوة إلى الله وإلى بيان شريعته في هذا الزمان أناس لم ينالوا من فقه التلاوة ومنهجها إلا رسمها، فجنوا على كثير من البرية وأضلوهم هدى الله وصراطه

---

[1]– النساء : 126

[2]– الحج : 28

[3]– الأنعام: 152

[4]– التحرير والتنوير: 213/5

[5]– قال الشيخ رشيد رضا: "وقد جاءت هذه الآيات بعد ذلك في أحكام النساء، فهي من جنس الأحكام التي في أول السورة، ولعل الحكمة في وضعها ها هنا تأخر نزولها إلى أن شعر الناس بعد العمل بتلك الآيات، بالحاجة إلى زيادة البيان في تلك الأحكام" [تفسير المنار: 360/5]

المستقيم.. نعوذ بالله من الخذلان.

ج- تلاوة الحكمة:

ولم ترد هذه الضميمة بنصها[1] إلا في قوله تعالى: (وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ)[2].

وأصل الحكمة في اللغة: المنع، سميت بذلك "لأنها تمنع من الجهل"[3] ووقعت هنا صفة للمتلو الذي هو وحي من الله عز ذكره، فيكون معناها كما قال الراغب: "الحكمة من الله تعالى: معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام"[4]وإنما كانت حكمة القرآن كذلك؛ لأنها من الله الحكيم الذي" يعلم أجل الأشياء بأجل العلوم؛ إذ أجل العلوم هو العلم الأزلي الدائم الذي لا يتصور زواله المطابق للمعلوم مطابقة لا يتطرق إليه خفاء ولا شبهة، ولا يتصف بذلك إلا علم الله سبحانه وتعالى".[5]

وقد تباينت أقوال المفسرين في تأويل الحكمة في هذه الآية؛ أهي وسم للقرآن، أم غيره، فذهب جماعة إلى تفسيرها بالسنة[6]، ورأى ابن عطية احتمال كونها وصفا للقرآن والسنة معا، فقال:" الحكمة هي سنة الله على لسان نبيه دون أن يكون في قرآن متلو، ويحتمل أن يكون وصفا للآيات"[7] وذهب بعضهم إلى أنها وصف للكتاب، فهو في نظر الزمخشري جامع "بين أمرين: هو آيات بينات تدل على صدق النبوة، لأنه معجزة بنظمه. وهو حكمة وعلوم وشرائع"[8] وذلك على أساس كون القرآن كله موصوفا بالأمرين، أما ابن عاشور فرأى أن عطف الحكمة على الآيات من باب عطف العام على الخاص، وكلاهما من المتلو، إلا أن الآيات تعم القرآن كله، والحكمة ما جرى من القرآن على بابة الأحكام والعظات، يقول رحمه الله في بيان ذلك: "وقد بين المتلو بشيئين: هما آيات

---

[1]- وإنما قلنا "بنصها" ليعلم أن كل ما تلي من الكتاب لا ينأى عن الحكمة، فالقرآن تنزيل من حكيم حميد، وكلامه جل ذكره حكم كله.. وإنما حديثنا عن المصطلح بما هو لفظة دالة عن مفهوم جار في مساقه القرآني.

[2]- الأحزاب: 34.

[3]- معجم مقاييس اللغة: مادة "حكم"

[4]- المفردات: حكم

[5]- المقصد الأسنى: 120 وترددت الحكمة في مواضع من القرآن مرادا بها كما قال الطاهر ابن عاشور: "ما فيه صلاح النفوس، من النبوءة والهدى والإرشاد" التحرير والتنوير: 63/3

[6]- ومن هؤلاء الطبري في تفسيره [268/20] والرازي [مفاتيح الغيب 168/25]

[7]- المحرر الوجيز: 385/4

[8]- الكشاف: 538/3

الله، والحكمة، فآيات الله يعم القرآن كله؛ لأنه معجز عن معارضته فكان آية على أنه من عند الله. وعطف (والحكمة) عطف خاص على عام وهو ما كان من القرآن مواعظ وأحكاما شرعية"[1].

وعليه **فتلاوة الحكمة** تعني بذل الجهد في اقتراء أجل علوم الكتاب، والارتقاء إلى الأنوار الإلهية المتجلية في معانيها. أي أنه لا بد في تلاوة الحكمة من بذل جهد لتحقيق غايتها؛ لأن الحكمة من جليل علم الله الحكيم جلت قدرته الذي أحكمها فأودعها كتابه، وقلما يبصرها إلا الحكماء لتوقلهم في معاني القرآن إلى أبعد غاياته.

المطلب الرابع: حق التلاوة[2]

الحق في اللغة ترجع مادته (الحاء والقاف) -كما قال ابن فارس- "إلى إحكام الشيء وصحته"[3] أو كما قال الراغب: "أصل الحق: المطابقة والموافقة، كمطابقة رِجل الباب في حُقه، لدورانه على استقامة"[4] والأصليان متقاربان، فلا يكون الشيء مطابقا إلا وهو صحيح محكم[5]، وهما الأقرب إلى معنى الحق في السياق الذي نحن فيه؛ فقد جاء الحق فيه وصفا للكلام، وحُق له أن يجري مجري الفعل في افتقاره لفاعل، إذ يقال: "حقق الأمر: أثبته وصدقه، يقال: حقق الظن وحقق القول والقضية والشيء والأمر: أحكمه، ويقال: حقق الثوب: أحكم نسجه وصبغ الثوب صبغا تحقيقا مشبعا. وكلام محقق محكم الصنعة رصين"[6] ومنه تحقيق التلاوة، أي إحكامها على مقتضى الأمر الإلهي، وهذا المقتضى لا يغني عن بيانه إلا نص وروده في التنزيل، علينا التوقف عند خطوات الوصول إليه:

وردت ضميمة "حق التلاوة" في آية البقرة التي يقول فيها ربنا عز ذكره: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ

---

[1]– التحرير والتنوير: 18/22

[2]– حقيقة هذه الضميمة في التركيب الواقعة فيه وصفية وإن كان ظاهرها إضافية، يقول أبو حيان في قوله تعالى: (حق تلاوته): "وانتصب (حق تلاوته) على المصدر، كما تقول : ضربت زيداً حق ضربه، وأصله تلاوة حقاً. ثم قدّم الوصف، وأضيف إلى المصدر، وصار نظير: ضربت شديد الضرب، إذ أصله : ضرباً شديداً" البحر المحيط 592/1

[3]– معجم المقاييس: حق 15/2

[4]– المفردات: حق

[5]– وتفرعت عن هذا الأصل معان يستعمل الحق فيها اسما، جمعها صاحب القاموس فقال: "الحق : من أسماء الله تعالى، أو من صفاته، والقرآن، وضد الباطل، والأمر المقضي، والعدل، والا سلام، والمال، والملك، والموجود الثابت، والصدق، والموت، والحزم، وواحد الحقوق" القاموس: حق

[6]– المعجم الوسيط : حق

الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ)[1].

وهي إخبار منه سبحانه عن جماعة تتلو الكتاب حق تلاوته، أي مستوفية تلاوتُهم شرائطها اللازمة، لكن من هي هذه الجماعة؟ وما معنى التلاوة الحقة حتى يكون التالي بإتيانه لها مضموما إلى من وصفوا بتلك الصفة؟ للجواب عن ذينك السؤالين نشتغل بمدخلين هما مثار الإشكال في الآية لدى المفسرين:

1- من المراد بالذين في الآية؟ وما الكتاب المتلو من لدنهم من الكتب المنزلة؟

2- ما معنى حق التلاوة ؟

أولا: اختلف المفسرون في "الذين آتيناهم الكتاب":

فقيل: عنى بهم المؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به. وهو قول قتادة، كما حكاه الطبري عنه[2]، وتبعه جمهرة من المفسرين، ويكون المراد بالكتاب على هذا : القرآن.[3]

احتج أصحاب هذا القول بوجوه من النظر[4]:

أحدها: أن قوله: (يتلونه حق تلاوته) حث وترغيب في تلاوة هذا الكتاب، ومدح على تلك التلاوة، والكتاب الذي هذا شأنه هو القرآن لا التوراة والإنجيل؛ فإن قراءتهما غير جائزة.

وثانيها: أن قوله تعالى: (أولئك يؤمنون به) يدل على أن الإيمان مقصور عليهم، ولو كان المراد أهل الكتاب لما كان كذلك.

وثالثها: قوله: (ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون) والكتاب الذي يليق به هذا الوصف هو القرآن." اهـ[5]

وقيل: بل عنى الله بذلك علماء بني إسرائيل، الذين آمنوا بالله وصدقوا رسله، فأقروا بحكم التوراة. فعملوا بما أمر الله فيها من اتباع محمد صلى الله عليه وسلم، والإيمان به، والتصديق بما جاء به من عند الله.[6] وهو قول ابن زيد. ويكون الكتاب المقصود التوراة كما روي عن مقاتل.[7]

---

[1]- البقرة: 120

[2]- جامع البيان: 564/2

[3]- المحرر الوجيز 204/1

[4]- مفاتيح الغيب 30/4

[5]- نفسه 30/4

[6]- جامع البيان 564/2

[7]- والمحرر الوجيز 204/1

ودليل هذا التأويل "أن الذين تقدم ذكرهم هم أهل الكتاب، فلما ذم طريقتهم، وحكى عنهم سوء أفعالهم، أتبع ذلك بمدح من ترك طريقتهم، بل تأمل التوراة وترك تحريفها وعرف منها صحة نبوة محمد عليه السلام."[1]

وروي أنها مخصصة بجماعة من أهل الكتاب: "نزلت في أربعين رجلاً؛ من أهل نجران بعضهم، ومن الحبشة بعضهم، ومن الروم منهم ثمانية؛ وهم الملاحون أصحاب السفينة الذين أقبلوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم مع جعفر بن أبي طالب، أثنى الله تعالى عليهم إذ آمنوا بكتابهم وبالنبي صلى الله عليه وسلم، فأثنى الله عز وجل عليهم في غير موضع من كتابه"[2].

ويحتمل أن يراد ب "الذين" العموم في مؤمني بني إسرائيل والمؤمنين من العرب، ويكون الكتاب اسم الجنس، كذا قال ابن عطية، ونحوه قيل القرطبي: "والآية تعم".[3]

وسياق الآية يرجح أن يكون المراد مؤمني أهل الكتاب، وهو ما اختاره جماعة من المفسرين منهم ابن جرير رحمه الله؛ لأن الآيات قبلها مضت بأخبار أهل الكتابين، وبيان من جحد منهم الحق ومن اتبع هدى الله، كما أن الآيات بعدها جارية على النسق نفسه، يقول ابن جرير: "فإذ كان ذلك كذلك، فالذي هو أولى بمعنى الآية أن يكون موجها إلى أنه خبر عمن قص الله جل ثناؤه قصصهم في الآية قبلها والآية بعدها، وهم أهل الكتابين: التوراة والإنجيل. وإذ كان ذلك كذلك، فتأويل الآية: "الذين آتيناهم الكتاب" الذي قد عرفته يا محمد - وهو التوراة- فقرءوه واتبعوا ما فيه، فصدقوك وآمنوا بك، وبما جئت به من عندي، أولئك يتلونه حق تلاوته".[4]

ثانيا: معنى "يتلونه حق تلاوته"

اختلفت أقوالهم كذلك في المراد بحق التلاوة هنا على أقوال، جمع الإمام فخر الدين الرازي أهمها ومآل تفريعاتها، حسبنا إيراد نصه عن التطويل بمبثوث أمهات التفسير، ورغم طوله ففيه محصل القيل الطويل الذيول، قال رحمه الله:" أما قوله تعالى: (يتلونه حق تلاوته) فالتلاوة لها معنيان:

أحدهما: القراءة.

الثاني: الاتباع فعلا؛ لأن من اتبع غيره يقال: تلاه فعلا، قال الله تعالى: (والقمر إذا تلاها) فالظاهر أنه يقع عليهما جميعا، ويصح فيهما جميعا المبالغة، لأن التابع لغيره قد يستوفي حق

---

[1]– مفاتيح الغيب 30/4

[2]– الهداية: لمكي 422/1 والمحرر الوجيز 204/1

[3]– المحرر الوجيز والجامع لأحكام

[4]– جامع البيان 564/2

الاتباع، فلا يخل بشيء منه، وكذلك التالي يستوفي حق قراءته فلا يخل بما يلزم فيه.

والذين تأولوه على القراءة هم الذين اختلفوا على وجوه:

فأولها: أنهم تدبروه فعملوا بموجبه حتى تمسكوا بأحكامه من حلال وحرام وغيرهما.

وثانيها: أنهم خضعوا عند تلاوته، وخشعوا إذا قرءوا القرآن في صلاتهم وخلواتهم.

وثالثها: أنهم عملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه، وتوقفوا فيما أشكل عليهم منه وفوضوه إلى الله سبحانه. ورابعها: يقرءونه كما أنزل الله، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه، ولا يتأولونه على غير الحق.

وخامسها: أن تحمل الآية على كل هذه الوجوه لأنها مشتركة في مفهوم واحد، وهو تعظيمها، والانقياد لها لفظا ومعنى، فوجب حمل اللفظ على هذا القدر المشترك تكثيرا لفوائد كلام الله تعالى والله أعلم"[1].

وإذ كان الخلف ثابتا في مقطعي الآية، فما ذا بعد بيانه وسرد تفاصيله؟ وما المستفاد من وسم التلاوة هذا "**حق التلاوة**":

إنه مهما يكن تفسير الكتاب المعني في الآية التي عليها مدار هذا الوصف، أهو التوراة أو القرآن، تبعا للمراد بالموصول وصلته، فإن التلاوة المطلوبة في الكتب الإلهية – ومنها القرآن- ينبغي أن تكون على هذا الوزان؛ بتحقيقها كما قال ربنا عز ذكره، وتحقيقُها بإحكام ألفاظها وحضور القلب عندها بغاية الأخذ بموجب المتلو، على التفصيل المذكور عند الفخر الرازي، وكأن هذه الآية تفسير للفظة التلاوة أينما وردت في الكتاب؛ وأن صاحبها من أهل الإيمان حقا، يقول ابن عاشور "وتلك هي التلاوة بفهم مقاصد الكلام المتلو؛ فإن الكلام يراد منه إفهام السامع، فإذا تلاه القارىء ولم يفهم جميع ما أراده قائله كانت تلاوته غامضة، فحق التلاوة هو العلم بما في المتلو"[2].

= = وإذ أفادتنا ضمائم التلاوة هذه، أن في كل ضميمة ميزة تجعل عملية التلاوة فيها منوطة بمدلول متعلقها؛ فتلاوة القرآن حين تسميته كتابا ملحوظ فيها اعتبار رسمه في التلاوة، وتلاوته قرآنا باعتبار جمعه لمعارف جمة تتجه تلاوة التالي إليها، كما تتجه في كل الضمائم المذكورة إلى مدلولها فيعتبر بها أثناء قراءتها. وأن ضميمة الوصف "**حق التلاوة**" قد تعد النهج السالك للفظة أينما وردت في الكتاب.. وإذ بينا كل ذلك، فلنتجه إلى متم البيان الإلهي لنسق "التلاوة" في مفاهيم

---

[1]- مفاتيح الغيب 30/4

[2]- التحرير والتنوير 696/1

أخرى يساعد تبصرها على تحقيق المفهوم الكلي للتلاوة، وذلك يرجى في مصطلحات تنتسب إلى التلاوة ولا تجري على الألسنة غالبا إلا منوطة بها، وذلك في المبحث الموالي:

المبحث الثاني: أسرته المفهومية:

لمصطلح التلاوة في القرآن الكريم امتداد إلى مصطلحات تنمى إلى مجاله التداولي، وتتفرع عن مفهومه وتأخذ من خصائصه، سيقت مضمومة إلى القرآن نظير ضم التلاوة إليه، وأهمها مصطلحان: التدبر – الترتيل ، فلنتوقف عند ها واحدة واحدة باحثين عن صلتها بالتلاوة:

المطلب الأول: التدبر

أولا: في اللغة

التدبر مشتق من مادة "دبر" ومدارها كما قال ابن فارس: على قياس واحد، وهو : "آخر الشيء وخلفه، خلاف قبله"[1].

وأَخذت منه كلمةُ التدبر هذا المعنى منضافا إليه دلالة زنة "تفعَّل" و" فعّل" بالتضعيف (التكلف للوصول إلى الغاية) وهو تكلف الوصول إلى عاقبة الشيء، يقول ابن منظور: "ودبّر الأمر وتدبره: نظر في عاقبته...والتدبير في الأمر: أن تنظر إلى ما تؤول إليه عاقبته. والتدبر: التفكر فيه"[2].

وأصله من الدبر، أي الظهر، اشتقوا من الدبر فعلا، فقالوا: تدبر: إذا نظر في دبر الأمر، أي في غائبه أوفي عاقبته، فهو من الأفعال التي اشتقت من الأسماء الجامدة"[3].

ومن هذا المعنى اللغوي أخذ التعريف العام لمصطلح التدبر، فعرفه الشريف الجرجاني بقوله: "التدبر: عبارة عن النظر في عواقب الأمور، وهو قريب من التفكر، إلا أن التفكر: تصرف القلب بالنظر في الدليل، والتدبر: تصرفه بالنظر في العواقب" ومنه التدبير، وهو: "استعمال الرأي بفعل شاق"[4].

وهذا التعريف كما ترى وسم التدبر بخاصية تميزه عما يندرج في بابه، وهو التفكر، فاختص التدبر بالنظر في عواقب الأمور، والتفكر شامل لجهات المنظور فيه[5]. فكيف جرى التدبر في

---

[1]– معجم المقاييس : مادة (دبر)

[2]– لسان العرب: دبر

[3]– التحرير والتنير 137/5

[4]– التعريفات: التدبر

[5]– ينظر كذلك هذا الفرق كتاب الفروق.. ص: 121. وقال الزجاج: معنى تدبرت الشيء: نظرت في عاقبته، وسمي النحل دبرًا لأنه يعقب ما ينتفع به. والمال الكثير دبر، لأنه يبقى للأعقاب والأدبار" معاني القرآن: 82/2

القرآن، وما المعنى المراد في إضافته للكتاب؟

ثانيا: التدبر في القرآن:

ورد مصطلح التدبر مضافا للقول الرباني في أربعة مواضع من القرآن:

الأول: في سورة النساء في قوله تعالى: (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا)[1]

الثاني: في سورة المومنون في مقام التلاوة عند قوله تعالى: (قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ)[2]

الثالث : في سورة ص، قوله تعالى: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ)[3].

الرابع: في سورة محمد: (أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ ا ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ اَقْفَالُهَآ)[4].

وغاية هذه الآيات منبئ عليه مقامها، وهو الحث على التدبر، والإنكار[5] على المعرضين عن الرسالة الإلهية، الشاكين في نبوة محمد وصدق رسالته، فألجأتهم إلى تدبر الكتاب كمنهاج لتبصر الحقيقة مجسدة في القرآن، بالنظر في دلائله وأسرار إعجازه؛ لأن بتدبره يحصل التذكر والاعتبار والهدى والاستبصار.

وقد فُسِّر التدبر في هذه الآيات بالتأمل والتبصر في الدلائل القرآنية ومعانيه الخالدة، للتعرف على البراهين الدالة على الحقيقة الدينية، فرادف التفكر، ولم يختص بعواقب الأمور كما فسر به خارج السياق القرآني.

ويمكن أن نستظهر على هذا القيل بكلام بعض المفسرين،[6] يقول الألوسي: "وأصل التدبر

---

[1]- النساء: 81

[2]- المومنون: 67-69 والقول مراد به القرآن، وبه فسره البيضاوي قائلا: "أي القرآن ليعلموا أَنَّهُ الحق مِن رَّبِّهِمْ بإعجاز لفظه ووضوح مدلوله" [تفسير البيضاوي: 161/4] , وأصل "ليدبروا" ليتدبروا بتاء بعد الياء آخر الحروف، وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه بهذا الأصل" ينظر الألوسي: 181/12

[3]- ص: 28

[4]- محمد: 25

[5]- بقول أبو حيان عن آية النساء: "وهذا استفهام معناه الإنكار أي: فلا يتأملون ما نزل عليك من الوحي ولا يعرضون عنه، فإنه في تدبره يظهر برهانه ويسطع نوره ولا يظهر ذلك لمن أعرض عنه ولم يتأمله" البحر المحيط: 725/3

[6]- وأكثر ما فسروا فيه التدبر آية النساء، ثم حالوا عليها في باقي آيات التدبر، او تركوا تفسيرها لتقدمها عندهم.

التأمل في أدبار الأمور وعواقبها، ثم استعمل في كل تأمل سواء كان نظرا في حقيقة الشيء وأجزائه، أو سوابقه وأسبابه، أو لواحقه وأعقابه"[1].

وقال الزمخشري: "تدبر الأمر: تأمله والنظر في إدباره وما يؤل إليه في عاقبته ومنتهاه، ثم استعمل في كل تأمل، فمعنى تدبر القرآن: تأمل معانيه وتبصر ما فيه"[2].

وقال ابن عاشور: "والتدبر يتعدى إلى المتأمل فيه بنفسه، يقال : تدبر الأمر. فمعنى (يتدبرون القرآن) يتأملون دلالته، وذلك يحتمل معنيين: أحدهما: أن يتأملوا دلالة تفاصيل آياته على مقاصده التي أرشد إليها المسلمين، أي تدبر تفاصيله ؛ وثانيهما: أن يتأملوا دلالة جملة القرآن ببلاغته على أنه من عند الله، وأن الذي جاء به صادق. وسياق هذه الآيات يرجح حمل التدبر هنا على المعنى الأول، أي لو تأملوا وتدبروا هدي القرآن لحصل لهم خير عظيم، ولما بقوا على فتنتهم التي هي سبب إضمارهم الكفر مع إظهارهم الإسلام. وكلا المعنيين صالح بحالهم، إلا أن المعنى الأول أشد ارتباطا بما حكي عنهم من أحوالهم"[3]

ونستخلص من هذه النصوص المفسِّرة للتدبر في الكتاب أمورا:

– أن التدبر صنو التفكر، وهو النظر في الآيات القرآنية بما هي دلائل وبراهين على ما نزلت لأجله, ولهذا استنبط ابن عطية من آية النساء[4] الأمر بالاستدلال والنظر، وأخذ منها ابن جزي[5] الحض على التفكر.

– من غايات التدبر الوقوف على المعجزة القرآنية الخالدة (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا) والتذكر والاعتبار (وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ).

– أن التدبر في القرآن منهاج هو غاية تنزل القرآن والقصد من تلاوته، لما يثمره من حقائق إيمانية ترقى بالإنسان نحو كمال العبودية (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ)[6].

---

[1]– روح المعاني: 89/3

[2]– الكشاف: 540/1

[3]– التحرير والتنوير: 138/5

[4]– المحرر الوجيز: 83/2

[5]– التسهيل: 201/1

[6]– ص: 28

– الإعراض عن التدبر موقع في التهلكة والغفلة عن كنوز القرآن ومعارفه (أم على قلوب اقفالها) الرازي: "فإن من لم يتدبر ولم يتأمل، ولم يساعده التوفيق الإلهي، لم يقف على هذه الأسرار العجيبة المذكورة في هذا القرآن العظيم، حيث يراه في ظاهر الحال مقرونا بسوء الترتيب، وهو في الحقيقة مشتمل على أكمل جهات الترتيب"[1] وذلك من سمات الكفرة التائهين عن الحقيقة الكونية..

ثالثا: علاقته بالتلاوة

لا يخفى بعد سالف البيان أن التدبر من تمام التلاوة وشريطة من شرائط ممارستها، فإن التالي للكتاب وهو يردد ألفاظه بصوته، ينبغي أن لا يغفل ذهنه ولا تشرد قوته المتخيلة عن دلائل الكتاب وحقائقه وأحكامه وحكمه ، فيحظى -بصنيعه- بالثواب من جهة نطقه وجهة نظره العقلي، وقد ألمع إلى هذه العلاقة سيد قطب فقال: "وتلاوة كتاب الله تعني شيئاً آخر غير المرور بكلماته بصوت أو بغير صوت . تعني تلاوته عن تدبر، ينتهي إلى إدراك وتأثر، وإلى عمل بعد ذلك وسلوك "[2] وذلكم كان نهج السالفين من أهل القرآن المهرة بمعانيه، الحاملين في الأمة رايته، فعن مجاهد قال: "عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحة الكتاب إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية وأسأله عنها"[3] والتالون في هذا درجات، حسب تفاوت إيمانهم ومعرفتهم، لتفاوت حقيقة التدبر ومراتبه، والبيان في ذلك قد يطول، حسبنا منه توضيح وجه علاقته بالمصطلح الأم "التلاوة". والحاصل منه أن التدبر من متم التلاوة على نهجها القويم، المقام في القرآن، المجسد في سيرة خير البرية عليه السلام وصحبه الكرام.

المطلب الثاني: الترتيل

أولا: في اللغة

أصل الكلمة جار على معنى التناسق والحسن، وعليه معان جمعها صاحب القاموس، فقال: "الرتَّل محركة : حسن تناسق الشيء، وبياض الأسنان، وكثرة مائها، والحسن من الكلام، والطيب من كل شيء، كالرتل ككتف فيهما، والمفلج، أو الحسن التنضد، الشديد البياض، الكثير الماء من الثغور، كالرتل ككتف. ورتل الكلام ترتيلا: أحسن تأليفه. وترتل فيه : ترسل"[1] وفي الصحاح: "الترْتيل في القراءة: الترسُّل فيها والتبيين بغير بغى. وكلام رَتِلٌ بالتحريك، أي مُرَتَّلٌ. وثغر رَتَلٌ أيضا: إذا كان مستويَ النبات، ورجل رَتِلٌ مثال تَعِب: بين الرتل، أي مفلج الأسنان"[2] وأضاف صاحب

---

[1]– مفاتيح الغيب : 389/26

[2]– في ظلال القرآن: 151/6

[3]– رواه الطبراني في الكبير ح 1197. 77/11

اللسان: "وكلام رتَل ورتِل أي مرتل حسن على تؤدة، ورتل الكلام: أحسن تأليفه وأبانه وتمهل فيه"[3].

ويستفاد من هذه النصوص أن الترتيل يوصف به الكلام، ويكون المراد به حسنه وبهاءه، وينشأ ذلك الحسن عن أمرين: أحدهما راجع إلى الناطق به (القارئ) والثاني عائد إلى نفس الكلام، فالأول: ترسل وتمهل القارئ من أجل تبيينه. والآخر دقة وبراعة تأليفه.. ذلك هو المعنى الجاري على لسان أهل اللغة، فكيف استعمل المصطلح في القرآن؟

ثانيا: في القرآن الكريم

ورد مصطلح الترتيل في موضعين من القرآن كلاهما جاء فيه مصدرا مبينا لفعل الترتيل:

الأول في قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلا)[4]

الثاني في قول الباري عز سلطانه: (يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ. قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا. نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا. أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا)[5]

أما الآية الأولى فقد أسند الفعل فيها إلى منزل القرآن والمتكلم به، مخبرا عن صفة هذا الكتاب وهي أنه مرتل، واختلف في معنى كونه مرتلا على أقوال حكيت في كتب التفسير:

يقول الطبري: والترتيل في القراءة: الترسل والتثبت. [ثم نسبه إلى إبراهيم والحسن وابن جريج.] وقال آخرون: معنى الترتيل: التبيين والتفسير. [حكاه عن ابن زيد].[6]

وقال ابن عطية: والترتيل: التفريق بين الشيء المتتابع، ومنه قولهم: ثغر رتل ومنه ترتيل القراءة، وأراد الله تعالى أن ينزل القرآن في النوازل والحوادث التي قدرها وقدر نزوله فيها"[7].

وقال الزمخشري: "ومعنى ترتيله: أن قدره آية بعد آية، ووقفة عقيب وقفة. ويجوز أن يكون المعنى: وأمرنا بترتيل قراءته، وذلك قوله: (ورتل القرآن ترتيلا) أى اقرأه بترسل وتثبت"[8].

---

[1]– القاموس: رتل

[2]– الصحاح: رتل

[3]– اللسان: رتل

[4]– الفرقان : 32

[5]– المزمل: 1– 3

[6]– جامع البيان 266/19

[7]– المحرر الوجيز 209/4

[8]– الكشاف: 279/3

وقال الطاهر ابن عاشور: "والترتيل يوصف به الكلام إذا كان حسن التأليف بين الدلالة. واتفقت أقوال أيمة اللغة على أن هذا الترتيل مأخوذ من قولهم: ثغر مرتل ورتل، إذا كانت أسنانه مفلجة تشبه نور الأقحوان. ولم يوردوا شاهدا عليه من كلام العرب . والترتيل يجوز أن يكون حالة لنزول القرآن، أي نزلناه مفرقا منسقا في ألفاظه ومعانيه، غير متراكم فهو مفرق في الزمان فإذا كمل إنزال سورة جاءت آياتها مرتبة متناسبة كأنها أنزلت جملة واحدة، ومفرق في التأليف بأنه مفصل واضح. وفي هذا إشارة إلى أن ذلك من دلائل أنه من عند الله؛ لأن شأن كلام الناس إذا فرق تأليفه على أزمنة متباعدة أن يعتوره التفكك وعدم تشابه الجمل. ويجوز أن يراد ب (رتلناه) أمرنا بترتيل، أي بقراءته مرتلا ، أي بتمهل بأن لا يعجل في قراءته بأن تبين جميع الحروف والحركات بمهل، وهو المذكور في سورة المزمل في قوله تعالى: (ورتل القرآن ترتيلا)"[1].

والمحصل من هذه الآراء أن ترتيل القرآن من منزل على نبيه عليه السلام يحتمل وجوها من التأويل: فقد يراد به: تفريقة آية بعد أخرى في زمن التنزيل، وقد يكون المعنى أنه قرئ عليه بتؤدة وتمهل، أو أنه بين تمام البيان وفسر تفسيرا، أو أنه منسق ومؤلف غاية التأليف في ألفاظه ومعانيه. وهو معنى أقرب من الذي قبله.

ولا تعارض بين هذه الوجوه لصحة اتصاف الكتاب بها جميعها، فهو مفرق في التنزيل، وقرئ برسل وتثبت، وبينت معانيه وألفت غاية التأليف. ولا قرينة ترجح أحد المعاني على أخرى.

أما الآية الثانية: (وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا)[2] وفيها أمر قارئ الكتاب بترتيل آيه، فقد تقاربت في معنى الترتيل فيها أقوال المفسرين:

يقول الطبري: "وقوله: (وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا) يقول جل وعز: وبين القرآن إذا قرأته تبيينا، وترسل فيه ترسلا. ثم روى بسنده عن ابن عباس والحسن ومجاهد وعطاء وقتادة نحو قيله"[3] وقد وضح الإمام الرازي معنى التبيين فيها قائلا: "بأن يتبين جميع الحروف، ويوفي حقها من الإشباع، قال المبرد: أصله من قولهم: ثغر رتل إذا كان بين الثنايا افتراق ليس بالكثير".[4]

وأضاف ابن عاشور: "وأريد بترتيل القرآن ترتيل قراءته، أي التمهل في النطق بحروف القرآن حتى تخرج من الفم واضحة، مع إشباع الحركات التي تستحق الإشباع"[5].

---

[1]- التحرير والتنوير: 20/19

[2]- المزمل: 1- 3

[3]- جامع البيان 680/23

[4]- مفاتيح الغيب: 386/30

[5]- التحرير 260/29

واستشهد كثير منهم لهذا المعنى بترتيل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد وروي أن قراءته عليه السلام كانت بينة مترسلة، لو شاء أحد أن يعد الحروف لعدها" وفي صحيح البخاري، عن أنس: أنه سئل عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: كانت مدا، ثم قرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) يمد بسم الله، ويمد الرحمن، ويمد الرحيم."[1]

إن الترتيل إذن في آية المزمل جار على معنى التمهل والتبيين للحروف والكلمات المقروءة، أي أن الملحوظ فيه هو الجانب الصوتي، وهو أمر في الوقت ذاته بلازم ذلك التمهل والترسل، وهو التفهم والتدبر، وقد فسره بذلك بعضهم، فقد نقل القرطبي عن أبي بكر بن طاهر قائلا في نعنى الأمر بالترتيل: "تدبر في لطائف خطابه، وطالب نفسك بالقيام بأحكامه، وقلبك بفهم معانيه، وسرك بالإقبال عليه."[2] ولذلك ألفينا كثيرا منهم ينص على هذا اللازم، فيقول الرازي –مثلا- "واعلم أنه تعالى لما أمره بصلاة الليل، أمره بترتيل القرآن، حتى يتمكن الخاطر من التأمل في حقائق تلك الآيات ودقائقها، فعند الوصول إلى ذكر الله يستشعر عظمته وجلالته، وعند الوصول إلى الوعد والوعيد يحصل الرجاء والخوف، وحينئذ يستنير القلب بنور معرفة الله، والإسراعُ في القراءة يدل على عدم الوقوف على المعاني؛ لأن النفس تبتهج بذكر الأمور الإلهية الروحانية، ومن ابتهج بشيء أحب ذكره، ومن أحب شيئا لم يمر عليه بسرعة، فظهر أن المقصود من الترتيل إنما هو حضور القلب وكمال المعرفة."[3] وقال أبو عمرو الداني في هذا السياق: "والترتيل يكون للتدبر والتفكر والاستنباط"[4].

وعلى تفسير آيتي الترتيل بما مضى بيانه نخلص إلى أن مفهوم الترتيل في القرآن هو: تلاوة آي الكتاب برسل وتبيين للحروف والكلمات، على نحو يحصل به إدراك المعنى ويوقف على جمال تأليفه وترتيله من لدن منزله.

ثالثا: علاقته بالتلاوة

واتضح من هذا التقريب أن الترتيل فرع عن التلاوة، فدلالة التلاوة تتضمن الجانب اللفظي والدلالي والغائي جميعا، أما الترتيل فالغالب فيه الجانب الصوتي، وباقي الاعتبارات كالتدبر والاتعاظ إنما هي لوازم طريقة الأداء، بحيث إذا انعدمت في ترتيل القارئ حل بصنيعة نقص

[1] – أخرجه البخاري كتاب فضائل القرآن. باب مد القراءة ح: 5046

[2] – الجامع لأحكام القرآن: 37/19

[3] – مفاتيح الغيب 684/30

[4] – التحديد في الإتقان والتجويد: 70

وحاد عن المطلوب. ولكنه يسمى للكتاب مرتّلا ولا يسمى تاليا إلا إذا كان مستجمعا لقيود التلاوة المذكورة سلفا.

ومعنى ذلك أن مصطلح التلاوة هو اللباب الذي إليه مآب هذا المصطلح وهو فرع عنه، ولا يصح أن يكون [أي الترتيل] مرادفا له إلا إذا فسر أصالة بالقراءة بقيودها.[1]

خاتمة الفصل

وبعد، فقد أدركنا من قضايا الفصل أن للتلاوة في القرآن الكريم كما أرسي مفهومها، مقامات توظيفية تجلت في مختلف ضمائمها، وقد ناسبها جميعَها فعل التلاوة الذي لا يوليه حقه إلا من كان على وعي بدقة تعبير القرآن وكمال إعجازه في نظمه، فأسند إلى **القرآن** تارة بهذا الوسم وتارة **بالكتاب**، وأخرى **بالذكر**، تنبيها للتالين إلى أن يلحظوا مدلول هذه الأسماء لتتجه عنايتهم إلى ممارسة التلاوة من جانب ما ضمه الكتاب من معارف وحقائق دينية، كما دل عليه علم "القرآن"، ويحفظوا رسمه من تحريف من هَمَّ بمس حروفه، وهم يتلونه "كتابا"، ولهم بذلك شرف رفعة "**وذكر**" في الملإ الأعلى، لأنهم مشتغلون بتلاوة هذا الذكر العظيم. وكذلك ما يرجى تبينه من إسناد هذا الفعل إلى الآيات وهي جالبة أولي الأبصار للنظر في غاية تنزلها في الكتاب، نظير "**تلاوة الأنباء**" المختار منها مشاهد تثبت أفئدة الذين آمنوا، وتبصر من غفلوا عن الحق وأعرضوا، كما ضمت إلى "**الأحكام** "فكان المراد تبيينها من التالين لمن هم لها جاهلون، وضمت إلى "**الحكمة**" للسعي إلى أسمى معارف وحِكم الكتاب. وجاءت ضميمة الوصف "**حق التلاوة**" الجارية نهجا سالكا للفظة التلاوة أينما وردت في الكتاب، موجهة التالين إلى أن يعنوا بهذه الحَقِّية، ليضموا إلى زمرة المؤمنين حقا..

---

[1] – وقد رام الدكتور أحمد عبادي حفظه الله أن يؤسس مفهوما للترتيل في كتابه "مفهوم الترتيل في القرآن الكريم: النظرية والمنهج" ملاحظا فيه بعده النسقي والبنائي الاتساقي الذي هو الأصل في دلالة الكلمة، وهو مفهوم يدعو إلى النظرة الكلية في ترتيل الكتاب، والانطلاق من معيار الوحدة البنائية فيه، والمناسبات بين آيه وسوره، منتقدا بذلك إعراض بعض المفسرين عن هذا الجانب، [ينظر مفهوم الترتيل : 79 ومابعدها]

أقول إن هذا الكلام ليخرج من مشكاة القرآن نفسه، ومن منهج الأئمة في تعاملهم معه، فهما وتنزيلا، وهو مفهوم آية الفرقان المخبرة عن الصفة العظمى في القرآن : أنه من الله مرتل، إذا فسرت بأصلها اللغوي الدائر على معنى الحسن والتنضيد, غير أن آية المزمل وفيها أمر بالتلاوة يبعد حملها على معنى الاتساق والتنضيد، بل على مهل وتبيين، لأنها متجهة إلى المخاطَب بالقرآن الذي ليس له أية يد في تنسيق الكتاب وتأليفه، سيما وأن هذا المعنى الأخير لا يبعد عن المعنى اللغوي أيضا، فالترسل في القراءة وتحسين الصوت بها من فروع مادة "رتل" كما سلف في المعنى اللغوي.. و والله أعلم بالصواب.

والمعاني الملحوظة في هذه الضمائم، إنما هي من تمام فعل التلاوة، وقد كان المعنى الرائد فيها هو ما عبره عنه القرآن بمصطلحات أخرى، تنمى إلى أسرته المفهومية، وذلك مصطلح **التدبر والترتيل**، فالأول يعني التفكر والنظر فيما يتلى نظر استبصار واعتبار ومشاهدة، والثاني يعد وسيلة لسابقة، ولأجله أمر به في الكتاب، وهو التمهل والتبيين عند التلاوة، الذي من شأنه أن يثمر الغاية الكبرى من قراءة الكتاب، والمصطلحان معا من فروع التلاوة وشرائطها، فلا تلاوة حق التلاوة إلا بإحكام الجانب الصوتي واللفظي ولا ثقة في فهم التالي إلا بالتدبر بشرطه..

وإذ تبينا كل ذلك كما نطقت به نصوص الكتاب، فلتتجه العناية إلى أقرب مجال تداولي لهذا المصطلح الإمام "التلاوة" وهو علم التجويد، باحثين عن كيفة جريانه فيه والعلاقة بينه وبين سابقه، لنتعرف على مدى حضور المصطلح القرآني في التأليف العلمي في التراث التجويدي. وبالله التوفيق

الفصل الثالث: علاقته بعلم التجويد

مما يجب إحكامه بعقب تحرير مصطلح التلاوة في القرآن الكريم، ما ينبغي أن يصنع في توظيف معالم نهجه المقتبس من نصوصه، وبيان ما وقع فيه الاهتمام منها من لدن المشتغلين بعلم التلاوة، وما هو عندهم من قبيل مداخلها وآدابها لا من أسسها الذاتية وخصائص ماهيتها.

ومعلوم أن علم التجويد هو أقرب مجال تتداولي لمصطلح التلاوة، على نحو من التوظيف لمعالمها امتازت به هذه الصناعة عن غيرها من التوجهات المعرفية التي حظيت بتلاوة الكتاب كذلك، ولكن على نحو آخر، أي اشتغلت بما هو الصق بمادتها ولم تخرج عن أحد أركان التلاوة. والقرآن الكريم لم يكن أبدا رهين علم تلين له ألسنة وقلوب أربابه، دون من لم يخبروا سوى علم غيره، ولو كان يتصور ذلك في الكتاب ما كان الفضل ثابتا لمتنوع التالين له والمتعلقين به، كل حسب مجال تخصصه حسب وسعه وطاقته.[1]

هذا وقد اعتنى علم التجويد بتحقيق ألفاظ القرآن عند النطق بها، مترسما مقتضى الأمر الإلهي بالترتيل في قوله: (ورتل القرآن ترتيلا) فخط لتأليف الأوضاع التي يستقيم نطق الحرف بها قواعدَ ومفاهيم، استقر علَمها منذ ابتداع الكتابة فيه إلى اليوم تحت مصطلح "التجويد" مقتبسا موضوعاته من كيفيات التلقي القرآني عن السلف الأول متصل السند إلى من تنزل عليه الكتاب،

[1] – وهذا الأمر إنما فرضه الواقع المعرفي، وقد كان اتخاذ نهج شامل في التعلق بالنص القرآني واقتباس معارفه وهداه، هو الأجدر والأسد من جلب مختلف التخصصات العلمية لآي الكتاب، كل يسعى للَيّ جمله نحو ذلك التخصص، وهو عائق عن تحصيل المراد الإلهي من آي الكتاب.

فجرى سنة متبعة إلى اليوم دون اعتراض. كل ذلك من أجل تمثل الأمر بالتلاوة؛ أداء لمقتضاها وتحصيلا لمدخر الثواب فيها.

وإذا صح أن علم التجويد إنما اشتغل بالتلاوة من جانبها الأدائي والصوتي، حتى أضحى علمه البارز، وكان هو المتبادر إلى ذهن القرأة كلما ذكرت لفظة التلاوة، دون متعلقات التلاوة الأخرى، فلنسع في هذه السطور إلى تبسيط هذه العلاقة للمصطلح القرآني مع ما هو عليه في هذا العلم الأثيل، تبينا يكشف مناحي الوفاق بين الفرع (صنعة التجويد) والأصل (المفهوم القرآني) وما استثمر من المظنة الأم مما لم يستثمر، ولنعقد تفصيل النظر في ذلك من مبحثين، تمثل مستويات هذه العلاقة:

الأول: المستوى المفهومي

الثاني: المستوى الإجرائي

المبحث الأول: المستوى المفهومي

بالنظر في القول الشارح للفظة التلاوة في عرف أرباب التجويد والمفهوم المستخلص من الكتاب، نتبين مابين المفهومين من علاقة:

1- فقد عرفت التلاوة عند القراء بأنها "قراءة القرآن متتابعا كالأوراد والأسباع والدراسة. والفرق بينها وبين الأداء والقراءة أنّ الأداء الأخذ عن المشايخ، والقراءة تطلق عليهما فهي أعمّ منهما"[1].

وهذا الرسم لاحظ في التلاوة أمرين: النطق بالألفاظ القرآنية، وهو المعبر عنه بالقراءة، والتتابع فيها كما تتابع الأوراد مدة زمنية؛ "ولعل قراءة القرآن سميت تلاوة لأنه مثاني، كلما قرئ منه شيء يتبع بقراءة غيره أو بإعادته، أو لأن شأنه أن يقرأ ليتبع بالاهتداء والعمل به"[2].

وهو تقريب عرفي للتلاوة مجمل يتوقف على مزيد بيان للمعهود في إطلاق أهله، ذلك أن القراءة المفسرة بها لفظة التلاوة لا بد أن تكون على نمط مّا، هو المعبر عنه بتجويد التلاوة، وذلك مفهوم من مساقات اللفظة في نصوص علماء التجويد من مثل عنونة الإمام مكي كتابه ب"الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة" "ليكون عونا لأهل تلاوة القرآن على تجويد ألفاظه وإحكام النطق به، وإعطاء كل حرف حقه من صفته وإخراجه من مخرجه"[3] فتكون

---

[1]- كشاف اصطلاحات والكليات: تلاوة

[2]- الكليات

[3]- الرعاية ص: 51

حقيقة التلاوة مرادفة لتجويد القراءة، بإعطاء اللفظة القرآنية ما تستحق عند النطق بها. واعتبار التتابع في التلاوة بعد هذا إنما هو فرع عن حقيقتها الراجعة إلى ذات الحرف، وهي خصلة من الخصال المندوبة في مدة ممارستها لا في زمن النطق بحروف كلمها.

ومهما يكن، فإذا انضم إلى قيد التجويد للفظ التلاوة قيدُ التتابع يكون مفهوم التلاوة في عرف أهل التجويد: قراءة القرآن بتجويد حروفه والتتابع لآيه..

2- أما المصطلح في العرف القرآني فقد كنا خلصنا لبيانه من نصوصه، وكان رسمه الكلي هو: قراءة آي القرآن وسرد أنبائه؛ بإحكام ألفاظها، وتدبر مضامينها، للعمل بموجبها.

ومن جملة عناصر هذا الرسم التي مضى تفسيرها، والرسم الذي سبقه، نتبين العلاقة المفهومية بين مجالي تداول المصطلح؛ الأصل والفرع:

فكلا المفهومين يوجب أن تكون القراءة متتابعة، عند تسمية التلاوة، أخذا من أصل المادة ومن استعمال القرآن وأهل الأداء، فلا يقال لقارئ كلمةٍ لها تاليا، حتى يُتبعها ما به يتم المعنى والمراد، ولذلك لم يرد في الحديث استعمال لفظة التلاوة مسندة إلى الحرف، بل جيء على الأصل فيه وهو القراءة فقال عليه السلام: "من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة"[1].

ولم يميز في تجويد القراءة عند التلاوة بين مضامين المتلو، كما فهم من نصوص المصطلح في القرآن، ليخص تلاوة الأنباء بما يحقق مقصدها، وهو كمال التتابع في مقاطعها حتى تُرى بيّنة البدء والختام، لا كالتتابع في باقي الآي القرآنية، كما أسلفنا البيان في تلاوة "الأنباء"، وهو ما أكده الرسم المفهوم من نصوص المصطلح القرآنية، التي لم نظفر فيها بلفظة القراءة مطلقة مع القصص والأخبار، تنبيها على هذا الذي ألمحنا إليه، وهكذا مع إضافتها إلى الحكمة والآيات ونحوها كما مضى في ضمائم المصطلح. والله أعلم بأسرار كتابه.

ومن جملة الخلات الظاهرة في المفهوم القرآني دون المفهوم العرفي القرائي للتلاوة: تدبر المعنى المراد، للعمل بما يتلى من الكتاب، وهو لازم عن الاتباع الواقع أصل دلالة الكلمة في اللغة والقرآن، إذ لا يتحقق اتباع ما يتلى حتى يُوقف على مدلوله وينظر في مقاصده، وذلك هو معنى التدبر المنصوص عليه في آيات[2]، تُحمل على أنها تفسير لتحقيق التلاوة، وإقامتها على وجه يثمر ما يرجى من الأمر بها.

وليس المعنى في ذلك على أن العرف القرائي لم يحظ عنده التدبر بكبير شأن، لا، فلن يكون أبدا مُعنى باللفظ دون المعنى، بل على أن حقيقة التلاوة في القرآن توجب ذلك القيد بذات التلاوة

[1]- أخرجه الترمذي حديث/ 2910 وقال: حديث حسن صحيح غريب.

[2]- سبق ذكرها في مصطلح التدبر

وأصلها، فلا يتمكن منها طالبها حتى يأتي به وبنظرائه، بخلاف العرف في علم التجويد، الذي لم يُعتبر فيه القصد إلى المعنى أصالة في حقيقة التلاوة؛ إنما المحفل بإقامة اللفظ على النهج المروي عن السلف الأول.

وإقامةُ اللفظ وإحكام النطق به في القراءة هو السمة الجامعة بين العرفين القرآني والتجويدي، وهو المطرد فيهما، ولا تتصور التلاوة على النهج المسنون دونه، آيتُه الأمر الإلهي بترتيل المتلو، المفسر من لدن جمهرة المفسرين –كما أسلفنا- بالترسل والتمهل، وإعطاء الحرف حقه ومستحقه[1]، وهو عين ما عرف به مصطلح التجويد، يقول أبو عمرو الداني في تعريفه: "فتجويد القرآن هو إعطاء الحروف حقوقها وترتيبها مراتبها، ورد الحرف من حروف المعجم إلى مخرجه وأصله وإلحاقه بنظيره وشكله، وإشباع لفظه، وتمكين النطق به على حال صيغته وهيئته، من غير إسرافٍ ولا تعسفٍ، ولا إفراطٍ ولا تكلف"[2].

وإذا كان الترتيل والتجويد لما يتلى من خصائص حقيقة التلاوة في اصطلاح القرآن وعلم التجويد، فإن اهتبال القرأة المجودين به، واتخاذه العيار الأمثل في تحقيق التلاوة في مصنفاتهم، دليل على أن غاية هذا العلم هي التغلغل فيما يصنع بالحروف القرآنية عند النطق بها، وتحسين الصوت وتزيين الأداء من لدن القارئين، دون ما كان في المفهوم القرآني للتلاوة من بقية الخصائص. وتفسير ذلك أن ننظر في مباحث علم التجويد مع المقتضيات المعرفية المساعدة على التلاوة بالمقتضى القرآني، وذلك في المبحث الآتي:

المبحث الثاني: المستوى الإجرائي

بوسعنا للظفر بالمشهود بين الكَتبة في علم التجويد، وإبراز الجانب الإجرائي العملي في التلاوة عندهم، انتخابُ نموذجين يُعدان من أعلام هذا العلم الذي إليهما المآب في أحكامه، والمحكَّمَين في معرفة مسالكه وغاياته، وهما مَن أمضيا جل حياتهما في خدمة هذا العلم، حتى بلغا فيه إلى أبعد غاياته، وهما الإمام مكي بن أبي طالب القيسي (ت 437هـ) في كتابه: "الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة" والإمام أبو عمرو الداني (ت 444هـ) في كتابه "التحديد في الإتقان التجويد" إذ كان جل من جاء بعدهما على نهجهما سائر، وحول صنيعهما يدندن، فحسبنا تصفحٌ عامٌّ لما حبراه في هذين المؤلَّفين، حتى إذا تعرفنا بعضا ما فيهما بما يحقق الغاية من هذه الدراسة، ألمحنا

[1]– نص المناوي على أن الترتيل عرفا هو: " رعاية مخارج الحروف وحفظ الوقوف" [التوقيف على مهمات التعاريف: 95 والتعريفات : 64] وهذا الرسم بسط للترسل وتفسير هيئته.

[2]– التحديد: 70

إلى هذا الجانب من التلاوة في القرآن الكريم؛ إذ كان غرضنا الوقوف على المعالم الكبرى دون دقيق التفاصيل:

أولا: الجانب الإجرائي للتلاوة في علم التجويد: الرعاية والتحديد أنموذجا:

سعى مؤلفا الكتابين معا إلى تقرير ما به يتم تجويد التلاوة، كما هو مقتبس من صنيع من سلف من العارفين بطريق أداء القرآن، فتشابهت مضامين المؤلَّفين، وتقاربت غايات فصولهما، نظير الباعث على وضعهما:

– أما الداعي إلى وضع الكتابين فهو شرود القارئين للقرآن الكريم عن قواعد الترتيل، وذهابهم في طريقه مالا تشهد له الأصول ولا له عن الشيوخ سند، فابتدعوا في تجويد ألفاظ التلاوة، وأحدثوا فيه ما لم يسمع عند أهل العلم بالقرآن؛ يقول مكي بعد بيان ما يجب في النطق ببعض الحروف: "كل ما ذكرته لك من هذه الحروف وما نذكره لم أزل أجد الطلبة تزل به ألسنتهم إلى ما نهيت عليه، وتميل به طباعهم إلى الخطأ فيما حذرت منه، فبكثرة تتبعي لألفاظ الطلبة بالمشرق والمغرب، وقفت على ما حذرت منه ووصيت من هذه الألفاظ كلها، وأنت تجد ذلك من نفسك وطبعك"[1].

فقد لاحظ إذن مكي رحمه الله طرو اللحن وميل الطباع إلى الخطأ في النطق بالحروف عند التلاوة، فحذر الطلبة من عدم الضبط والإتقان لما يتلونه من الكتاب، ونهج لهم ما يعصمهم من ذلك الخطأ، من "تفسير الحروف ومخارجها، وصفاتها وألقابها وبيان قويها وضعيفها واتصال بعضها ببعض، ومناسبة بعضها لبعض، ومباينة بعضها لبعض، ليكون الوقوف على معرفة ذلك عبرة في لطف قدرة الله الكريم، وعونا لأهل تلاوة القرآن الكريم على تجويد ألفاظه، وإحكام النطق به، وإعطاء كل حرف حقه من صفته، وإخراجه من مخرجه، باقيا ذلك على مرور الأزمان وتعاقب الأعصار.."[2].

وعلى ذلك النهج سار أبو عمرو الداني في تحديده، فنلفيه يقرر الداعي لوضع مصنفه فيقول: "فقد حداني ما رأيته من إهمال قراء عصرنا، ومقرئي دهرنا تجويدَ التلاوة وتحقيق القراءة، وتركهم استعمال ما ندب الله تعالى إليه، وحث نبيه - صلى الله عليه وسلم - وأمته عليه، من تلاوة التنزيل بالترسل والترتيل -أن أعملت نفسي في رسم كتابٍ خفيف المحمل، قريب المأخذ، في وصف علم الإتقان والتجويد، وكيفية الترتيل والتحقيق، على السبيل التي أداها المشيخة من الخلف، عن الأئمة من السلف، واجتهدت في بيان ذلك، وبذلت طاقتي، وبالغت في

---

[1]– الرعاية: 170

[2]– نفسه: 51

إيضاحه عنايتي، وأفصحت عن جليه وظاهره، ودللت على خفيه وداثره، وأودعته الوارد من السنن والأخبار في معناه، على حسب ما إلينا أداه من لقيناه من العلماء، وشاهدناه من الفهماء، عن الأئمة الماضين والقراء السالفين، لتتوفر بذلك فائدته ويعم نفعه، من رغب حفظه وأراد معرفته من المتناهين والمقصرين، إن شاء الله تعالى"[1].

إن أبا عمرو لم يكن ليرى واقعا تخلى الطالبون فيه عن سنن التلاوة فلا ينبههم إلى مآخذها، ولا يرسم لهم معالم تحقيقها، بل انبرى لذلك، فرسم لهم قواعد إتقان التلاوة وتجويد الكلم القرآنية، كما فعل مكي بن أبي طالب؛ أداء لأمانة الكتاب التي وهبهما إياها رب الأرباب..

فالكتابان إذن يرميان إلى غاية واحدة، هي تحقيق التلاوة وتجويد ألفاظها ببيان قواعدها مأخوذة عن المقرئين الأولين.. وفي ذلك دلالة أولية على أن الجانب العملي في التلاوة عند علماء التجويد، كان متجها بالأساس إلى تجويد الألفاظ القرآنية، وتحقيق هيئاتها ومخارجها..

- آية ذلك أنا بنظرة إلى أبواب وفصول الكتابين ومضامينهما واجِدوها لا تند عن دراسة عملية صوتية للقرآن، إنْ في كيفية النطق بالحروف وإقامتها، أو في كيفية الأداء لها في علاقاتها مع غيرها، وهذا جدول يستعرض أهم تلك الأبواب[2]:

أبواب من كتاب الرعاية	أبواب من كتاب التحديد
- باب معرفة الحروف التي يؤلف منها الكلام وعللها. - باب ما تضمنه تأليف الكلام وعلله. - باب الاختلاف في حروف المد واللين والحركات الثلاث: أيهما مأخوذ من الآخر وعلل ذلك. - باب صفات الحروف وألقابها وعللها: باب الهمزة – باب الهاء ..	- باب ذكر البيان عن حقائق الألفاظ وحدود النطق بالحروف. - باب ذكر مخارج الحروف المعجمة وتفصيلها - باب ذكر أصناف هذه الحروف وصفاتها - باب ذكر أحوال النون الساكنة والتنوين - باب ذكر الحروف التي يلزم استعمال

[1]- التحديد 66- 67

[2]- صحيح أن المؤلفَين لم يغفلا الجانب الدلالي والتدبري للتلاوة في تراثهما، ولاسيما مكيا في هذه الرسالة (الرعاية) حيث أودعها مجموعة من الفصول مما ينبغي أن يكون عليه قارئ القرآن غير الجانب الأدائي.. ومن جملتها: ما يكمل به حال طالب القرآن، وذلك كعلم الناسخ والمنسوخ والمكي والمدني الإعراب وغريب القرآن والفرائض والأحكام.. غير أنها فصول ليست من غاية موضوعه كما أبان في مقدمته، ولا هي من مقاصد علم التجويد كما هو بين أربابه..

- باب الاختلاف في المخارج ... - باب الوقف على المشدد. - باب بيان أحكام النون الساكنة والتنوين .	تجويدها وتعمّل بيانها وتلخيصها لتنفصل بذلك من مشبهها على مخارجها - باب ذكر أحوال الحركات في الوقف وبيان الروم والإشمام - باب ذكر الوقف وبيان أقسامه

وبمطالعة ما علق بهذه الأبواب من فصول وقضايا، نجدها دراسة علمية دقيقة لأصوات القرآن ومجرياتها في النطق عند القراءة، من ثم كان الغالب على مصطلحات الكتابين تلك التي تصف مخارج الحروف وصفاتها وهيئات النطق بها عند نظمها في كلم قرآنية، وعدت لذلك مخارج الحروف وصفاتها " قطب التجويد وملاك التحقيق"[1] وهكذا تترى مصطلحات في الكتابين من هذا الباب، مثل: الحروف المجهورة والمهموسة والشديدة والرخوة والزوائد والمطبقة والصفيرية والمنفتحة والمستعلية والمستفلة والهوائية والخفية وحروف المد واللين .. وهلم جرا[2].

كما أن من تمام تجويد التلاوة معرفة هيئات تسهل النطق بالحرف من قبيل ما نص عليه أبو عمرو في قوله: "اعلموا أن التجويد لا يتمكن والتحقيق لا يتحصل إلا بمعرفة حقيقة النطق بالمتحرك، والمسكن، والمختلَس، والمرام، والمُشَم، والمهموز، والمسهل، والمحقق، والمشدد، والمخفف، والممدود، والمقصور، والمبين، والمدغم والمخفى، والمفتوح، والممال"[3].

ثانيا: الجانب الإجرائي للتلاوة في القرآن الكريم

إذا كانت قواعد الأداء من تمام التلاوة في علم التجويد كما بينا، فإنه (أي تمام التلاوة) في القرآن الكريم لا يتم إلى باستصحاب كل الوسائل التي تثمر غايات التلاوة، كما هي منصوص عليها في سياقاتها القرآنية، وهو ما تم إجمال عبارته في المفهوم المستخلص منها، وهو مفهوم يستدعي

---

[1]– التحديد ص: 102

[2]– ينظر باب صفات الحروف من كتاب الرعاية ص: 115 وما بعدها والتحديد ص: 105

[3]– التحديد: 95

البحث في الجانب الإجرائي الملموس، كي لا يبقى في إطار مجرد، وعليه غشاوة الإجمال، ونستحضر للوصول إلى هذا المرمى أمرين:

الأول: ثمرات التلاوة في سياقاتها القرآنية

الثاني: النموذج الأمثل في ممارسة التلاوة

1- **أما ثمرات التلاوة** فبوسعنا تبينها من خلال الآي الآتية:

- يقول الله تعالى : (وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢)[1].
- ويقول عز ذكره: (وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا)[2].
- ويقول سبحانه: (إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝١٠٨)[3].
- وقال تبارك وتعالى: (وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ)[4].

ويؤخذ من تلكم الآيات، أن التلاوة الحقة هي التي يحصل بها تأثر القلب، وتغير الوجدان، وازدياد الإيمان، على نحو ما أبصر في الآيات المذكورة:

- تلاوة يزداد بها الإيمان ويتحقق التوكل لدى المؤمن.
- تلاوة تثمر السجود والبكاء.
- تلاوة تهدي للإيمان بالمعاد والتحقق من معجزة القرآن، والاستسلام لله الواحد القهار.

وهذه الثمرات وإن وقع الإخبار عن حصولها لدى المتلو عليه، لا ريب وأنها أسبق في الحصول لدى التالي، إذ كان الداعي بتلاوته قدوة للمدعوّين بإصغائهم, وفي ذلك إشارة إلى أن التلاوة الحقة هي التي تفيد هذه الغايات، لكن بأية وسيلة تتم التلاوة على هذا النحو؟

---

[1]- الأنفال: 2

[2]- مريم: 58

[3]- الإسراء: 108

[4]- القصص: 53

ذلك هو ما نود إثارته في هذا الجانب الإجرائي للمصطلح في القرآن، وحاصله أن التأثر المذكور عند التلاوة لا بد وأن يصدر عن تلاوة متقنة مرتلة، حتى تعلم ألفاظها وفق التنزل الإلهي، وأن يصحبها علم بالمتلو، في مضامينه ومقاصده ومراد المتكلم به، ثم تخليص النية لذلك بما يرقى بالنفس نحو كمال التخلق بالمقصد الأسنى من التلاوة.

وتفسير ذلك أن وسائل التلاوة في الكتاب لتجرى على وفق مقاصدها، تتلخص في العلم والعمل بالأسس الآتية:

1- **الأساس الأدائي**: بتجويد التلاوة وتحقيق ألفاظها، المأمور به في قوله تعالى: (ورتل القرآن ترتيلا) على ما فصل في قواعد الترتيل من كتب التجويد؛ نحو الكتابين المذكورين سلفا: "التحديد: لأبي عمرو الداني"، و"الرعاية لمكي بن أبي طالب القيسي".

2- **الأساس الدلالي والمقصدي**: وذلك بالعلم بكافة الآليات التي تُوقف التالي على مراد الله من كلامه؛ من أدوات لغوية، وبلاغية، وأصولية، ومقاصدية، مما كان لدى السلف الأول سليقة يستصحبونه وهم للكتاب تالون "فتعلموا بذلك العلم والعمل جميعا" وهو ما فصل في كتب علوم القرآن وغيره من علوم الشريعة واللغة.

3- **الأساس التربوي**: وهو تصفية القلب من كل ما يحول دون تذوق بصائر القرآن، والتوجه إلى الله بكل القوى، والتجرد من كل ما سواه والانصهار مع الكتاب ودلائله؛ إذ بذلك تحصل ثمرات التلاوة، حكى الواحدي عن عامة أهل العلم فقال: "إن من كانت الدلائل عنده أكثر وأقوى كان إيمانه أزيد"[1].

وهذه الأسس بمثابة منهاج للتالين، اقتبس من القرآن ذاته:

فالأساس الأول مدلول عليه بقوله تعالى: (ورتل القرآن ترتيلا).

والثاني من لوازم التدبر المأمور به في مثل قوله تعالى: (أفلا يتدبرون القرآن) وذلك عند تلاوته وسماعه؛ إذ "المقصود من القراءة التدبر، ولذلك سن فيه الترتيل؛ لأن الترتيل في الظاهر ليتمكن من التدبر بالباطن، قال علي رضي الله عنه: " لا خير في عبادة لا فقه فيها ولا في قراءة لا

[1]– تفسير المنار 492/9

تدبر فيها"[1] ولا ريب أن الترقي في درجات العلم بدلالات القرآن وما به يحصل كمال المعنى، والعلم بحلال القرآن وحرامه، والاعتبار بموعظته وآياته من متم التدبر، والناس فيه متفاتون؛ حسب علمهم وجدِّهم في النظر، وتصفية قلوبهم من الكدر.

والثالث مستنبط من الآيات المسوقة سلفا في ذكر حصول التأثر بالقرآن عند تلاوته، ومن قوله تعالى: (يا يحيى خذ الكتاب بقوة) أي بجد واجتهاد، وأخذُه بالجد أن يكون متجردا له عند قراءته، منصرف الهمة إليه عن غيره"[2].

2- **والنموذج الأمثل** في هذا النمط من التلاوة إنما يتجسد في شخص الرسول عليه الصلاة والسلام وفي الجيل الذي رباه؛ جيل صحبه الكرام، ومن اقتفى أثرهم من الصالحين، وإليكم بعض النصوص المسفرة عن نهجهم في التلاوة، بدءا بقدوتنا الأمثل عليه السلام، فتلاوة صحبه الكرام:

– عن أم سلمة رضي الله عنها أنها نعتت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قراءة مفسرة حرفا حرفا"[3]. وقولها: "مفسرة" أي مبينة، "حرفا حرفا" أي كان يقرأ بحيث يمكن عد حروف ما يقرأ. والمراد حسن الترتيل والتلاوة على نعت التجويد.[4]

- عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: "قام النبي صلى الله عليه وسلم بآية يرددها حتى أصبح. والآية: "إن تعذبهم فإنهم عبادك" الآية"[5].

- عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه قال: "رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة على ناقته، يقرأ سورة الفتح يرجِّع في قراءته"[6]. والترجيع: ترديد القراءة، ومنه ترجيع الأذان. وقيل هو تقارب ضروب الحركات في الصوت.[1]

---

[1]– إحياء علوم الدين 366/1

[2]– الإحياء 365/1

[3]– أخرجه الترمذي في سننه كتاب فضائل القرآن باب ما جاء كيف كانت قراءة النبي صلى الله عليه وسلم. ح: 2923 وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من حديث ليث بن سعد، عن ابن أبي مليكة، عن يعلى بن مملك، عن أم سلمة"

[4]– تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: المباركفوري. 194/8 ط. دار الكتب العلمية.

[5]– رواه ابن ماجة في سننه: كتاب إقامة الصلوات. باب ما جاء في القراءة في صلاة الليل. ح: 1349.

[6]– أخرجه البخاري ح 5047

– وعن أبي حمزة قال: قلت لابن عباس: إني سريع القرآن؛ أني أقرأ القرآن في ثلاث، قال: لئن أقرأ البقرة في ليلة أتدبرها و أرتلها، أحب إلى أن أقرأه كما تقرأ"[2].

– وعن عبد الله بن مسعود قال: "اقرؤوا القرآن وحركوا به القلوب، و لا يكن هم أحدكم آخر السورة".[3]

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن هذا القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا "[4].

– وورد في الدعاء الذي علمه النبي صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب: "وارزقني أن أتلوه على النحو الذي يرضيك عني"[5].

– عن أبي صالح قال قدم ناس من أهل اليمن على أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فجعلوا يقرؤون القرآن ويبكون، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: هكذا كنا"[6].

- عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال .. ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفقه ولا علم ليس فيه تفهم ولا قراءة ليس فيها تدبر "[7].

هذه النصوص وسواها تنبه بجلي ألفاظها إلى ما كان عليه النبي الأكرم وأهل الجيل الأول في تلاوتهم للقرآن؛ إذ كانوا على ذكر بموجبات التلاوة وأسسها التي سلف ذكرها، فاستصحبوها وهم بالتلاوة منشغلون، فكان منهم التحقق لألفاظها، والتدبر لمعانيها، والتأثر بمواعظها، حتى بكوا وكانوا بآيات الله مستبصرين، وللحق خاضعين، وما ذاك إلا لأنهم علموا أن حق التلاوة لا يتأتى

---

[1]– النهاية في غريب الحديث 202/2

[2]– رواه البيهقي في شعب الإيمان. باب في تعظيم القرآن. فصل في إحضار القارئ قلبه ما يقرأه و التفكر فيه. ح 2040

[3]– نفسه ح: 2042

[4]– أخرجه البيهقي في السنن الكبرى كتاب الشهادات، باب البكاء عند قراءة القرآن. ح 21589

[5]– أخرجه الترمذي في الدعوات باب دعاء الحفظ. ح: 3570. قال الترمذي: " هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم"

[6]– أورده النووي في التبيان في آداب حملة القرآن. ص: 87

[7]– أخرجه ابن عبد البر بسنده إلى عقبة بن نافع، عن إسحاق بن أسيد، عن أبي مالك، وأبي إسحاق، عن علي. قال أبو عمر : " لا يأتي هذا الحديث مرفوعا إلا من هذا الوجه، وأكثرهم يوقفونه على علي رضي الله عنه". جامع بيان العلم وفضله: 812/2

من التالي للكتاب، إلا إذا جمع بين الترتيل للفظ، والتدبر للمعنى، والاستبصار بالمغزى، على حد قول أبي حامد الغزالي رحمه الله: "وتلاوة القرآن حق تلاوته، هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب؛ فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل، وحظ العقل تفسير المعاني، وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزجار والائتمار. فاللسان يرتل، والعقل يترجم، والقلب يتعظ"[1].

خاتمة الفصل

وجملة القول في هذا الفصل أن علاقة مصطلح التلاوة في القرآن الكريم بما هي عليها في علم التجويد تنبلج بنظرين؛ نظر في مفهومها، ونظر في إجرائها، أما الأول فقد خلصنا منه إلى أن إقامة اللفظ وإحكام النطق به في القراءة هو السمة الجامعة بين العرفين القرآني والتجويدي، وتميَّز المفهوم القرآن بخلة العناية بتدبر المعنى واتباع المدلول، والفصل بين النِّسب المتعلقة بها، حسب نوع المتلو؛ فكان لتلاوة القصص ميزته، ولتلاوة الأنباء مغزاه، ولتلاوة الأحكام مرامه، كما مضى مفصلا في الفصل الثاني من الضمائم..

أما النظر الثاني فخلصنا منه إلى أن مجريات التلاوة في كتب علم التجويد، التي من أجلِّها وأدقها مسلكا: كتابا التحديد لأبي عمرو الداني، والرعاية لمكي بن أبي طالب القيسي، جارية على قواعد تعصم لفظ التلاوة من اللحن في كيفية جريانه على اللسان، فكان جل مواد الكتابين خادما لهذه الغاية. أما مقتضى التلاوة في القرآن فاستثمرنا ثمراته في القرآن، لتتحصل أسسها في الجوانب الثلاثة: الأدائي، والدلالي، والتربوي، أُسس أكدتها السنة العملية لنبينا الأكرم، وصنيع صحبه الكرام في تلاوتهم للكتاب، التي تؤم الجوانب الثلاثة، من أجل تحقيق التلاوة باللسان والعقل والقلب جميعا..

خاتمة الدراسة

نحاول في هذه الخاتمة استرجاع ما تم تحقيقه من فصول هذه الدراسة، والتنبه إلى ما عسى تثمره من منتظرات معرفية قرآنية:

[1]- الإحياء 372/3

– لعلم التجويد وطيد علاقة بالمصطلح القرآني؛ فهو مستمده ومنه انبثقت – أصالة- قضاياه الهادفة لتحقيق التلقي القرآني كما كان في مبتدئه، وأكبر ما تنجلي فيه تلك العلاقات من مصطلحات القرآن ذات صلة بهذا الفن: **مصطلح التلاوة**.

– بإحصاء موارد المصطلح في القرآن؛ وصفا لصيغها وأحوالها الإسنادية، تبينت أسرار في التنوع الحاصل في لفظة "التلاوة" ومتعلقاتها في القرآن المكي والمدني، ترجع بالأساس إلى طبيعة الدعوة الإسلامية في المرحلتين. كما ألفي بعد الدراسة النصية للمصطلح: أن مصطلح التلاوة في القرآن يجري على ثلاثة معان مترابطة فيما بينها، وهي: - القراءة المحلاة بالإحكام اللفظي، والتأمل الذهني المصاحب للمداومة والاستمرار- الاتباع لمضامين ما يتلى – السرد لآي القصص، باعتبار السرد عملية تستدعي التتابع إلى متم الحدث؛ للاعتبار بدلائله.

– ومن كل هذه العناصر خلصنا إلى مفهوم التلاوة في القرآن الكريم المرسوم على الشكل الآتي: قراءة آي القرآن وسرد أنبائه، بإحكام ألفاظها وتدبر مضامينها، للعمل بموجبها.

– للتلاوة في القرآن الكريم كما أُرسي مفهومها، مقامات توظيفية تجلت في مختلف ضمائمها، وقد ناسبها جميعَها فعل التلاوة الذي لا يوليه حقه إلا من كان على وعي بدقة تعبير القرآن وكمال إعجازه في نظمه، فأسند إلى **القرآن** تارة بهذا الوسم، وتارة **بالكتاب**، وأخرى **بالذكر**، تنبيها للتالين إلى أن يلحظوا مدلول هذه الأسماء لتتجه عنايتهم إلى ممارسة التلاوة من جانب ما ضمه الكتاب من معارف وحقائق دينية، كما دل عليه علم "**القرآن**"، ويحفظوا رسمه من تحريف من هَمَّ بمس حروفه، وهم يتلونه "**كتابا**"، ولهم بذلك شرف رفعة "**وذكر**" في الملإ الأعلى، لأنهم مشتغلون بتلاوة هذا الذكر العظيم. وكذلك ما يرجى تبينه من إسناد هذا الفعل إلى "**الآيات**" وهي جالبة أولي الأبصار للنظر في غاية تنزلها في الكتاب، نظير "**تلاوة الأنباء**" المختار منها مشاهد تثبّت أفئدة الذين آمنوا، وتبصر من غفلوا عن الحق وأعرضوا، كما ضُمت إلى "**الأحكام**" فكان المراد تبيينها من التالين لمن هم لها جاهلون، وضمت إلى "**الحكمة**" للسعي إلى أسمى معارف وحِكم الكتاب. وجاءت ضميمة الوصف "**حق التلاوة**" الجارية نهجا سالكا للفظة التلاوة أينما وردت في الكتاب، موجهة التالين إلى أن يعنوا بهذه الحَقِّية، ليُضموا إلى زمرة المؤمنين حقا..

والمعاني الملحوظة في هذه الضمائم، إنما هي من تمام فعل التلاوة، وقد كان المعنى الرائد فيها هو ما عبره عنه القرآن بمصطلحات أخرى، تنمى إلى **أسرته المفهومية**، وذلك مصطلح **التدبر والترتيل**، فالأول يعني التفكر والنظر فيما يتلى نظر استبصار واعتبار ومشاهدة، والثاني يعد وسيلة لسابقة، ولأجله أمر به في الكتاب، وهو التمهل والتبيين عند التلاوة، الذي من شأنه أن يثمر الغاية

الكبرى من قراءة الكتاب. والمصطلحان معا من فروع التلاوة وشرائطها، فلا تلاوة حق التلاوة إلا بإحكام الجانب الصوتي واللفظي، ولا ثقة في فهم التالي إلا بالتدبر بشرطه.

– اتضح أن علاقة التلاوة في القرآن الكريم بما هي عليها في علم التجويد تنبلج بنظرين؛ نظر في مفهومها، ونظر في إجرائها: أما الأول فقد خلصنا منه إلى أن إقامة اللفظ وإحكام النطق به في القراءة هو السمة الجامعة بين العرفين القرآني والتجويدي، وتميَّز المفهوم القرآن بخلة العناية بتدبر المعنى واتباع المدلول، والفصل بين النِّسب المتعلقة بها، حسب نوع المتلو وضميمته.. أما النظر الثاني فخلصنا منه إلى أن مجريات التلاوة في كتب علم التجويد، التي من أجلِّها وأدقها مسلكا: كتابا التحديد لأبي عمرو الداني، والرعاية لمكي بن أبي طالب القيسي، جارية على قواعد تعصم لفظ التلاوة من اللحن في كيفية جريانه على اللسان، فكان جل مواد الكتابين خادما لهذه الغاية. أما مقتضى التلاوة في القرآن فاستثمرنا ثمراته في القرآن، لتتحصل أسسها في الجوانب الثلاثة: **الأدائي، والدلالي، والتربوي**، أسس أكدتها السنة العملية لنبينا الأكرم، وصنيع صحبه الكرام في تلاوتهم للكتاب، التي تؤم الجوانب الثلاثة، من أجل تحقيق التلاوة باللسان والعقل والقلب جميعا..

ومن كل تلكم النتائج نخلص إلى **ثمرات قد تعد من توصيات هذا البحث:**

أولها: أن مصطلح التلاوة في القرآن الكريم هو بمثابة مدخل لقراءة الكتاب؛ قراءة تهدي للتي هي أقوم في التبصر للدين الإسلامي والتعامل مع مصدره القرآن، كما مارسه الجيل الفريد المشهود له بالخيرية. ولا ينبغي أن يُفهم (مصطلح التلاوة) بشكل جزئي يتجه إلى أحد أسسه دون الآخر.

ثانيها: دقة التعبير القرآني توجب على التالين للكتاب أن يستحضروا مقاصد الموضوعات التي تساق فيه، وتتجه عنايتهم إلى ما به يتم تحقيق المراد من الخطاب القرآني بها، فلا يجرى تفهم قصصه كما تفهم أحكامه وحِكَمه.. إن في التفسير لها أو في التدبر لمقاصدها.

ثالثها: كما أضحى جليا أن المصطلحات القرآنية المتداخلة لابد من ربط بعضها ببعض، وإجرائها على نحو أنساق ونظريات تؤخذ من القرآن الكريم وتنفع في الاهتداء بهديه؛ إذ لا عاصم اليوم من الأزمة الدينية إلا الفهم السليم للقرآن.

رابعها: مصطلحات العلوم ولاسيما الشرعية، ينبغي الأوب بها إلى مصدرها الأول وهو القرآن، كي لا تبقى مفصولة عن غاياتها، ومبتوتة عن منبعها الذي منه إيجادها وهو الوحي الإلهي، فكل

تقييد طلاها أو تجديد طرأ عليها بتعاقب الأزمان، ينبغي أن يكون خادما لهذا الغرض دون إيغال في التجريد الذي يصير العلم مقصدا يتدارس من أجل ذاته.. كما وقع للمباحثات المعرفية في بعض من تراثنا. والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

لائحة المصادر والمراجع

- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر: شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الغني الدمياطي.. تح : أنس مهرة. ط. دار الكتب العلمية - لبنان - 1419هـ
- إحياء علوم الدين: لأبي حامد الغزالي. ط. دار مصر.1998م
- أدب الكاتب: لابن قتيبة. تح: محي الدين عبد الحميد. ط. دار الطلائع 2005
- البحر المحيط: لأبي حيان الأندلسي . تح: عادل عبد الموجود، وآخرين. ط. دار الكتب العلمية.1- 1413هـ
- البرهان في علوم القرآن: الزركشي. تح أبو الفضل إبراهيم. ط. دار التراث.
- التحديد في الإتقان والتجويد: لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني. تح. غانم قدوري الحمد. ط. دار عمار. عمان الأولى 1421هـ - 2000م
- التحرير والتنوير: للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور. ط. دار سحنون. تونس.
- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: المباركفوري. ط. دار الكتب العلمية.
- التسهيل لعلوم التنزيل: لأبي القاسم ابن جزي الكلبي الغرناطي (المتوفى: 741هـ) تح. الدكتور عبد الله الخالدي. ط. شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت. الأولى - 1416هـ
- التعريفات : الشريف الجرجاني. تح عبد المنعم الحفني. ط. دار الرشاد. بدون تاريخ.
- تفسير البيضاوي: تح. عبد القادر عشا حسونة. ط. دار الفكر. 1416هـ
- تفسير الراغب الأصفهاني: تح. د. محمد عبد العزيز بسيوني. ط.: كلية الآداب - جامعة طنطا. الأولى: 1420 هـ
- تفسير القرآن العظيم: لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي. تح. سامي بن محمد سلامة. ط: دار طيبة للنشر والتوزيع. الثانية 1420هـ - 1999 م
- تفسير المراغي: أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: 1371هـ ط. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر. الأولى، 1365 هـ - 1946 م

- تفسير المنار. الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة: 1990 م
- التوقيف على مهمات التعاريف: عبد الرؤوف المناوي القاهري (المتوفى: 1031هـ) تح. عبد الخالق ثروت. ط. عالم الكتب . -القاهرة. الأولى، 1410هـ-1990م
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن: لمحمد بن جرير الطبري. تح. محمود شاكر. ط. مكتبة ابن تيمية القاهرة.
- الجامع لأحكام القرآن: لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي (المتوفى : 671 هـ) تح. هشام سمير البخاري. ط. دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية. الأولى 1423
- الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة: لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي. تح: د. أحمد حسن فرحات. ط. دار عمار. عمان. الثالثة. 1417هـ
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: 1270هـ). تح: علي عبد الباري عطية. ط دار الكتب العلمية – بيروت. الأولى، 1415 هـ
- سنن ابن ماجة: لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجة. تح محمد فؤاد عبد الباقي .ط دار الكتب العلمية.
- سنن الترمذي: لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي. تح أحمد محمد شاكر. ط دار الحديث القاهرة.
- الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية: للجوهري. تح: أحمد عبد الغفور عطار. ط. دار العالم للملايين. 1399هـ
- ط. دار الكتاب العربي – بيروت. الثالثة - 1407 هـ
- الفروق اللغوية: لأبي هلال العسكري. تح محمد إبراهيم سليم. ط. دار العلم والثقافة.
- القاموس المحيط: للفيروز آبادي. ط. مؤسسة الرسالة. 8. 1428هـ
- كتاب "العين": للخليل بن أحمد الفراهيدي. تح إبراهيم السامرائي. ومهدي المخزومي.
- كشاف اصطلاحات الفنون: التهانوي. تح علي دحروج. ط. مكتبة لبنان 1996م
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: لأبي القاسم محمود بن عمرو ،جار الله الزمخشري
- الكليات: لأبي البقاء الكفوي. تح: عدنان درويش ومحمد المصري. ط. مؤسسة الرسالة. 2. 1419هـ

- لسان العرب: لابن منظور. تح عبد الله علي الكبير، وآخرين. ط دار المعارف. القاهرة. بدون تاريخ.
- مجاز القرآن: لأبي عبيدة معمر بن المثنى. تح: أحمد فريد المزيدي. ط. دار الكتب العلمية. 2006
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لابن عطية. تح عبد السلام عبد الشافي. ط. دار الكتب العلمية.
- المصباح المنير: أحمد بن محمد الفيومي. ط. دار الحديث. 1429.
- معاني القرآن وإعرابه: لأبي إسحاق الزجاج (المتوفى: 311هـ) تح. عبد الجليل عبده شلبي ط. عالم الكتب – بيروت. الأولى 1408 هـ - 1988 م
- المعجم الوسيط: أحمد حسن الزيات وآخرين. ط. المكتبة الإسلامية. تركيا
- معجم مقاييس اللغة: لابن فارس. تح عبد السلام هارون. ط. دار الجيل الأولى-1411هـ
- مفاتيح الغيب: للإمام فخر الدين الرازي الشافعي. ط. دار الكتب العلمية - بيروت الأولى. 1421 هـ
- مفردات ألفاظ القرآن: للراغب الأصفهاني. تح: مصطفى بن العدوي. ط. مكتبة فياض. 1430هـ
- مفهوم الترتيل: النظرية والمنهج: أحمد عبادي. ط .دار أبي رقراق-1-2007
- المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى: لأبي حامد الغزالي. بسام عبد الوهاب الجابي . الطبعة الأولى ، 1407 - 1987
- الموافقات: لأبي إسحاق الشاطبي. تعليق وشرح: عبد الله دراز. خرج أحاديثه: أحمد السيد سيد أحمد علي. ط المكتبة التوفيقية. القاهرة.
- النبأ العظيم: عبد الله دراز. ط. دار القلم. السادسة 1405 هـ
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: إبراهيم بن عمر البقاعي (المتوفى: 885هـ) ط. دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
- النهاية في غريب الحديث والأثر: لابن الأثير. تح. محمود الطناحي. طاهر أحمد الزاوي. ط. دار إحياء التراث العربي.
- الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومها: أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي القيرواني. تح: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي. ط. مجموعة

بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة. الأولى، 1429 هـ - 2008م

- الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز : لأبي عبد الله الحسين بن محمد الدامغاني. تح محمد حسن أبو العزم الزفيتي . ط. وزارة الأوقاف المصرية. 1416